٢٠

صفوة التفاسير

القسم العشرون

تفسير جزء عمّ

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يُباع

دار القرآن الكريم

بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم العشرون

تفسير جزء عمّ

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى – مكة المكرمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة عمَّ مكية وتسمى ﴿سورة النبأ﴾ لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور ، ومحور السورة يدور حول إثبات « عقيدة البعث » التي طالما أنكرها المشركون .

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة ، والبعث والجزاء ، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة ، حتى صاروا فيه ما بين مصدِّق ومكذب ﴿عمَّ يتساءلون * عن النبأ العظيم . .﴾ الآيات .

* ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين ، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع ، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فنائه ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً * والجبال أوتاداً * وخلقناكم أزواجاً * وجعلنا نومكم سباتاً﴾ الآيات .

* ثم أعقبت ذلك بذكر البعث ، وحدَّدت وقته وميعاده ، وهو يوم الفصل بين العباد ، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً * يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً . .﴾ الآيات .

* ثم تحدثت عن جهنم التي أعدها الله للكافرين ، وما فيها من ألوان العذاب المهين ﴿إن جهنم كانت مرصاداً * للطاغين مآباً * لابثين فيها أحقاباً﴾ الآيات .

* وبعد الحديث عن الكافرين ، تحدثت عن المتقين ، وما أعدَّ الله تعالى لهم من ضروب النعيم ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إنَّ للمتقين مفازاً * حدائق وأعناباً * وكواعب أتراباً * وكأساً دِهاقاً﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة ، حيث يتمنى الكافر أن يكون تراباً فلا يحشر ولا يحاسب ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾

اللغــة : ﴿سُباتاً﴾ السبتُ في اللغة : القطعُ ، سمي الليل سُباتاً لأنه يقطع العمل والحركة ﴿وهاجاً﴾ الوهّاج : المتوقد المتلألىء من قولهم : وَهجت النار إذا أضاءت ﴿ثجاجاً﴾ شديد الانصباب يقال : ثجَّ إذا سال بكثرة وفي الحديث ﴿أفضلُ الحج :العجُّ والثجُّ﴾ العجُّ : رفع الصوت بالتلبية ، والثجُّ : إراقة الدماء وذبحُ الهدايا ﴿كواعب﴾ جمع كاعب وهي التي برز نهدها واستدار مع ارتفاع يسير ﴿دِهاقاً﴾ مملوءة يقال : أدهقتُ الكأسَ أي ملأتها قال الشاعر :

أتانا عامرٌ يبغي قِرانا فأتْرعنا له كأساً دِهاقاً

التفسير : ﴿عمَّ يتساءلون﴾ ؟ أي عن أيِّ شيءٍ يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضاً ؟ وأصل ﴿عمَّ﴾ عنْ ما ، أدغمت الميم في النون وحذفت الف ﴿ما﴾ الاستفهامية ، وليس المراد هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه ، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم ، ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاءً فجاء اللفظ بصيغة الاستفهام للتفخيم والتهويل وتعجيب السامعين من أمر المشركين ، ثمّ ذكر تعالى ذلك الأمر الخطير فقال ﴿عن النبأ العظيم﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم الهام وهو أمر البعث[1] ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ أي الذي اختلفوا فيه ما بين شاكٍّ في وقوعه ، ومكذب منكر لحصوله ﴿كلاَّ سيعلمون﴾ ردعٌ وزجر أي ليرتدعْ أولئك المكذبون عن التساؤل عن البعث ، فسيعلمون حقيقة الحال ، حين يرون البعث أمراً واقعاً ، ويرون عاقبة استهزائهم ﴿ثم كلاَّ سَيَعْلمُون﴾ تأكيد للوعيد مع التهويل أي سيعلمون ما يحل بهم من العذاب والنكال . . ثم أشار تعالى إلى الأدلة الدالة على قدرته تعالى ، ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من أمر البعث ، وكأنه يقول : إن الإله الذي قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظام ، قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم فقال ﴿ألَمْ نجْعل الأرْضَ مِهَاداً﴾ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها ، والتقلب في أنحائها ؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها ، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿والجِبَال أوْتاداً﴾ أي وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد قال في

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠٩ والقرطبي ١٩/ ١٨١ .

(١) هذا هو الراجح أن المراد بالنبأ العظيم أمر البعث لأنه ذكر بعده دلائل القدرة على إمكان البعث من قوله ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً . .﴾ الخ وذكر منها تسعة أمور ، وقيل المراد بالنبأ القرآن أو النبوة وما ذكرناه هو الراجح وهو اختيار العلامة أبي السعود .

وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾

التسهيل : شبَّهها بالأوتاد لأنها تمسكُ الأرض أن تميد[١] ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ أي وجعلناكم أيها الناس أصنافاً ذكوراً وإناثاً ، لينتظم أمر النكاح والتناسل ، ولا تنقطع الحياة عن ظهر هذا الكوكب الأرضي ﴿وجعلْنا نَوْمكُمْ سُباتاً﴾ أي وجعلنا النوم راحة لأبدانكم ، قاطعاً لأشغالكم ، تتخلصون به من مشاق العمل بالنهار ﴿وجعلْنا اللَّيْل لِباساً﴾ أي جعلنا الليل كاللباس يغشاكم ويستركم بظلامه ، كما يستركم اللباس،وتغطيكم ظلمته كما يغطي الثوبُ لابَسه قال في التسهيل : شبهه بالثياب التي تُلبس لأنه سترٌ عن العيون[٢] ﴿وجعلْنا النَّهارَ معاشاً﴾ أي وجعلنا النهار سبباً لتحصيل المعاش ، تتصرفون فيه لقضاء حوائجكم قال ابن كثير : جعلناه مشرقاً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه ، بالذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك[٣] ﴿وبنَيْنا فوقكُمْ سبْعاً شِداداً﴾ أي وبنينا فوقكم أيها الناس سبع سموات محكمة الخلق بديعة الصنع ، متينةً في إحكامها وإتقانها ، لا تتأثر بمرور العصور والأزمان ، خلقناها بقدرتنا لتكون كالسقف للأرض كقوله تعالى ﴿وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظاً﴾ وقوله ﴿والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾ ﴿وجعلْنا سِراجاً وهَّاجاً﴾ أي وأنشأنا لكم شمساً منيرة ساطعة ، يتوهج ضوءها ويتوقد لأهل الأرض كلهم ، دائمة الحرارة والتوقد قال المفسرون : الوهَّاج المتوقد الشديد الإضاءة ، الذي يضطرم ويلتهب من شدة لهبه وقال ابن عباس : المُنير المتلألىء[٤] ﴿وأنزلنا منَ المُعْصرات ماءً ثجَّاجاً﴾ أي وأنزلنا من السحب التي حان وقتُ إمطارها ماءً دافقاً منهمراً بشدةٍ وقوة قال في التسهيل : المعصرات هي السحب ، مأخوذةٌ من العصر لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء[٥] ، شبهت السحابة التي حان وقت إمطارها بالجارية التي قد دنا حيضها ﴿لنخرج به حباً ونباتاً﴾ أي لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والزروع ، التي تنبت في الأرض غذاءً للإنسان والحيوان ﴿وجناتٍ ألفافاً﴾ أي وحدائق وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان ، ملتفةً بعضها على بعض لكثرة أغصانها وتقارب أشجارها . . ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى ، كبرهانٍ واضح على إمكان البعث والنشور ، فإن من قدر على هذه الأشياء قادرٌ على البعث والإحياء ولهذا قال بعده ﴿إنَّ يومَ الفصل كان ميقاتاً﴾ أي إن يوم الحساب والجزاء ، ويوم الفصل بين الخلائق ، له وقت محدودٌ معلوم في علمه تعالى وقضائه ، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذلك يومٌ مجموع له الناسُ وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ قال القرطبي : سمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه ، وقد جعله وقتاً وميعاداً للأولين والآخرين[٦] ﴿يومَ يُنْفخُ في الصُّور فتأْتُونَ أفْواجاً﴾ أي يكون ذلك يوم أن ينفخ في الصور نفخة القيام من القبور ، فتحضرون

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧٣ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧٣ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٩٠ .
(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ١٧٠ . (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧٣ . (٦) تفسير القرطبي ١٩/ ١٧٣ .

وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

جماعات جماعات ، وزمراً زمراً للحساب والجزاء ، ثم ذكر تعالى أوصاف ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿وفُتِحت السَّماءُ فكانتْ أبْواباً﴾ أي تشققت السماء من كل جانب ، حتى كان فيها صدوعٌ وفتوحٌ كالأبواب في الجدران ، من هول ذلك اليوم كقوله تعالى ﴿إذا السماء انشقت﴾ وعبَّر بالماضي ﴿وفتحت﴾ لتحقق الوقوع ﴿وسُيِّرت الجبالُ فكانتْ سراباً﴾ أي ونسفت الجبال وقلعت من أماكنها ، حتى أصبح يخيَّل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء ، كالسراب يظنه الرائي ماءً وليس بماء قال الطبري : صارت الجبال بعد نسفها هباءً منبثاً لعين الناظر ، كالسراب الذي يظنه من يراه ماءً وهو في الحقيقة هباء[1] ﴿إنَّ جهنَّم كانتْ مِرصاداً﴾ أي إن جهنم تنتظر وتترقب نزلاءها الكفار ، كما يترصد الإنسان ويترقب عدوه ليأخذه على حين غرة قال المفسرون : المرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو ، وجهنم تترصَّد أعداء الله لتعذبهم بسعيرها ، وهي مترقبة ومتطلعة لمن يمرُّ عليها من الكفار الفجار لتلتقطهم إليها ﴿للطاغين مآباً﴾ أي هي مرجع ومأوى ومنزل للطغاة المجرمين ﴿لابثينَ فيها أحقاباً﴾ أي ماكثين في النار دهوراً متتابعةً لا نهاية لها[2] قال القرطبي : أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب ـ أي الدهور ـ وهي لا تنقطع ، كلما مضى حقب جاء حقب ، لأن أحقاب الآخرة لا نهاية لها[3] قال الربيع وقتادة: هذه الأحقاب لا انقضاء لها ولا انقطاع[4] ﴿لا يذوقونَ فيها برْداً ولا شرَاباً﴾ أي لا يذوقون في جهنم برودةً تخفف عنهم حرَّ النار ، ولا شراباً يسكِّنُ عطشهم فيها ﴿إلا حميماً وغسَّاقاً﴾ أي إلاَّ ماءً حاراً بالغاً الغاية في الحرارة ، وغساقاً أي صديداً يسيل من جلود أهل النار ﴿جزاءً وفاقاً﴾ أي عاقبهم الله بذلك جزاءً موافقاً لأعمالهم السيئة ﴿إنَّهم كانوا لا يَرجونَ حِساباً﴾ أي لم يكونوا يتوقعون الحساب والجزاء، ولا يؤمنون بلقاء الله ، فجازاهم الله بذلك الجزاء العادل ﴿وكذَّبُوا بآياتِنا كذاباً﴾ أي وكانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث وبالآيات القرآنية تكذيباً شديداً ﴿وكلَّ شيءٍ أحصيْناهُ كتاباً﴾ أي وكل ما فعلوه من جرائم وآثام ضبطناه في كتاب لنجازيهم عليه ﴿فذُوقوا فلنْ نزيدكُم إلاَّ عذاباً﴾ أي فذوقوا يا معشر الكفار فلن نزيدكم على استغاثتكم إلاَّ عذاباً فوق عذابكم قال المفسرون : ليس في القرآن على أهل النار آية هي أشد من هذه الآية ، كلما استغاثوا بنوعٍ من العذاب أغيثوا بأشد منه[5] . . ولما ذكر تعالى

(١) تفسير الطبري ٣٠/ ٧ . (٢) ليس في الآية الكريمة ما يدل على تناهي تلك الأحقاب ، لأن الحقب في كلام العرب لا يكاد يستعمل إلا فيما هو متتابع متلاحق ، وهو كناية عن التأبيد ، فخاطبهم بما تذهب إليه أوهامهم وما يعرفون ، وقيل إنها في عصاة المؤمنين وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله تعالى ﴿وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ . (٣) تفسير القرطبي ١٩/ ١٧٥. (٤) و(٥) انظر القرطبي ١٩/ ١٨٠وحاشية الصاوي ٤/ ٢٨٥ .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

أحوال الأشقياء أهل النار ، ذكر بعدها أحوال السعداء الأبرار فقال ﴿إنَّ للمتقين مفَازاً﴾ أي إن للمؤمنين الأبرار الذين أطاعوا ربهم في الدنيا ، موضع ظفر وفوز بجنات النعيم ، وخلاص من عذاب الجحيم ، ثم فسَّر هذا الفوز فقال ﴿حدائقَ وأعناباً﴾ أي بساتين ناضرة فيها من جميع الأشجار والأزهار ، وفيها كروم الأعناب الطيبة المتنوعة من كل ما تشتهيه النفوس ﴿وكواعِبَ أتْراباً﴾ أي ونساءً عذارى نواهد قد برزت أثْداؤهنَّ ،وهنَّ في سن واحدة قال في التسهيل : الكواعب جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها[1] ﴿وكأساً دِهاقاً﴾ أي وكأساً من الخمر ممتلئةً صافية قال القرطبي : المرادُ بالكأس الخمرُ كأنه قال : وخمراً ذات دِهاق أي مملوءة قد عُصرت وصُفِّيت[2] ﴿لا يسمعُونَ فيها لغواً ولا كذَّاباً﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً فارغاً لا فائدة فيه ، ولا كذباً من القول لأن الجنة دار السلام ، وكل ما فيها سالمٌ من الباطل والنقص ﴿جزاءً مِنْ ربِّكَ عطاءً حِساباً﴾ أي جازاهم الله بذلك الجزاء العظيم ، تفضلاً منه وإحساناً كافياً على حسب أعمالهم ﴿ربِّ السموات والأرضِ وما بينهما الرحمن﴾ أي هذا الجزاء صادرٌ من الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ﴿لا يملكون منه خِطاباً﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يخاطبه في دفع بلاء ، أو رفع عذاب في ذلك اليوم ، هيبةً وجلالاً ﴿يومَ يقُوم الرُّوح والملائكةُ صفّاً﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفين خاشعين ﴿لا يتكلمونَ إلاَّ من أذِنَ له الرحمن وقال صَوَاباً﴾ أي لا يتكلم أحد منهم إلاَّ من أذن الله له بالكلام والشفاعة ونطق بالصواب قال الصاوي : وإذا كان الملائكة الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله لا يقدرون أن يشفعوا إلا بإذنه ، فكيف يملك غيرهم[3]؟ ﴿ذلكَ اليومُ الحقُّ﴾ أي ذلك هو اليوم الكائن الواقع لا محالة ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي فمن شاء أن يسلك إلى ربه مرجعاً كريماً بالإيمان والعمل الصالح فليفعلْ ، وهو حثٌ وترغيب ﴿إنَّا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث أي إنا حذرناكم وخوفناكم عذاباً قريباً وقوعه هو عذاب الآخرة ، سمَّاه قريباً لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿يومَ يَنظرُ المرءُ ما قدَّمت يداه﴾ أي يوم يرى كل إنسان ما قدَّم من خير أو شر مثبتاً في صحيفته كقوله تعالى ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ ﴿ويقُول الكافرُ يا ليتني كنتُ تُراباً﴾ أي ويتمنى الكافر أنه لم يخلق ولم يُكلَّف ويقول : يا ليتني كنت تراباً حتى لا أحاسب

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧٤ . (٢) تفسير القرطبي ١٩/ ١٨١ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٨٦ .

ينفلق عنه الليل ، وينجلي عنه الظلام قال ابن عباس : ﴿الفلق﴾ الصبحُ كقوله تعالى ﴿فالق الإصباح﴾[١] وفي أمثال العرب : هو أبينُ من فلق الصبح قال المفسرون : سبب تخصيص الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة ، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة ، فكما أن الإنسان يكون منتظراً لطلوع الصباح ، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح ﴿من شرِّ ما خلق﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس ، والجن ، والدواب ، والهوام ، ومن شر كل مؤذٍ خلقه الله تعالى ﴿ومن شرِّ غاسق إذا وقب﴾ أي ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولهذا قالوا في المثل « الليلُ أخفى للويل » قال الرازي : وإنما أُمر أن يتعوذ من شر الليل ، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوام من مكانها ، ويهجم السارقُ والمكابر ، ويقع الحريق ، ويقل فيه الغوث[٢] ﴿ومن شرِّ النفاثات في العقد﴾ أي ومن شر السواحر اللواتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن ـ أي ينفخن ـ فيها ليضروا عباد الله بسحرهن ، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله﴾ قال في البحر : وسبب نزول المعوذتين قصة « لبيد بن الأعصم » الذي سحر رسول الله ﷺ في مشطٍ ومشاطة وجف ـ قشر الطلع ـ طلعةِ ذكر ، ووترٍ معقود فيه إحدى عشرة عقدة ، مغروزٍ بالإبر ، فأنزلت عليه المعوذتان ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد في نفسه خفهﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نشط من عقال[٣] ﴿ومن شر حاسدٍ إذا حسد﴾ أي ومن شر الحاسد الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره ، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له .

البـلاغـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الجناس الناقص بين ﴿فلق﴾ و﴿خلق﴾ .

٢ ـ الإطناب بتكرار الاسم ﴿شر﴾ مراتٍ في السورة ﴿من شر ما خلق﴾﴿ومن شر غاسق﴾﴿ومن شر النفاثات﴾ الخ تنبيهاً على شناعة هذه الأوصاف .

٣ ـ ذكر الخاص بعد العام للاعتناء بالذكور ﴿من شر ما خلق﴾ فإنه عموم يدخل تحته شر الغاسق ، وشر النفاثات ، وشر الحاسد .

٤ ـ جناس الاشتقاق بين ﴿حاسد﴾ و﴿حسد﴾ .

٥ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق »

***

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٩٤ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٣١/ ١٩٥ . (٣) البحر المحيط ٨/ ٥٣٠ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة النازعات مكية ، شأنها كشأن سائر السور المكية ، التي تُعنى بأصول العقيدة « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » و محورُ السورة يدور حول القيامة وأحوالها ، والساعة وأهوالها ، وعن مآل المتقين ، ومآل المجرمين .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار ، التي تنزع أرواح المؤمنين بلطف ولين ، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة ، والتي تدبر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿والنازعات غرقاً * والناشِطات نشطاً * والسابحات سبحاً * فالسابقات سبقاً * فالمدبرات أمراً﴾ الآيات .

* ثم تحدثت عن المشركين ، المنكرين للبعث والنشور ، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الفظيع ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفة * أبصارها خاشعة * يقولون أئنا لمردودون في الحافرة * أئذا كنا عظاماً نخرة ؟﴾ الآيات .

* ثم تناولت السورة « فرعون» الطاغية ، الذي ادعى الربوبية وتمادى في الجبروت والطغيان ، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربُّه بالواد المقدَّس طوى * إذهب إلى فرعونَ إنه طغى * فقل هلْ لكَ إلى أن تزكى . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ ، وذكَّرتهم بأنهم أضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بناها * رفع سمكها فسوَّاها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه وكذبوا بحدوثه ﴿يسألونك عن الساعة أيَّان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها﴾ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾

اللغــة : ﴿واجفة﴾ خائفة فزعة يقال : وجف القلبُ وجيفاً إذا خفق واضطرب من شدة الفزع ﴿الحافرة﴾ الرجوع إلى الحالة التي كان عليها يقال : رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء قال الشاعر :

أحـافرةً على صَلَعٍ وشيب معـاذَ اللـهِ من سَفَهٍ وعار[١]

﴿الساهرة﴾ وجه الأرض ، والعربُ تسمي وجه الأرض والفلاة ساهرة لأنه يُسهـر عليهـا ﴿سمكهـا﴾ السَّمك : العلُوٌّ والارتفاع ، وبناءٌ مسموك أي عال مرتفع ﴿أغطش﴾ أظلم يقال : غطش الليلُ وأغطشه اللهُ أي صار مظلماً وأظلمه الله ﴿دحاها﴾ بسطها وسوَّاها قال زيد بن عمرو :

دَحاهـا فلما استـوت شدَّها بـأيدٍ وأرسـى عليهـا الجبالا[٢]

﴿الطامة﴾ الداهية العظمى التي لا تستطاع قال الشاعر :

إنَّ بعض الحُـبِّ يعمـي ويُصِمُّ وكذاكَ البُغضُ أدهى وأطمُّ[٣]

التفسيـر : ﴿والنَّازعاتِ غـرقاً﴾ أي أُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعاً بالغاً أقصى الغاية في الشدة والعسر ﴿والنَّاشطـات نشطـاً﴾ أي وأُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح المؤمنـين بسهولةٍ ويسر ، وتسلُّها سلاً رفيقاً قال ابن مسعود : إن ملكَ الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السَّفود ـ سيخ الحديد ـ الكثير الشُعب من الصوف المبتلّ ، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء ، وينزع روح المؤمن برفق ولين ، ويقبضها كما ينشط العِقال من يد البعير[٤] قال ابن كثير : أقسم سبحانه بالملائكة حين تنزع أرواح بني آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلَّته من نشاط[٥] ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾ أي وأقسم بالمـلائكـة التي تنزل بأمـر اللـه ووحيه من السماء كالذي يسبح في الماء ، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾ أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ﴿فالمُدبِّرات أمْراً﴾ أي الملائكة تدبِّـر شئـون الـكون بأمـره تعـالى ، في الـرياح ، والأمطـار ، والأرزاق ، والأعمار ، وغير ذلك من شئون الدنيا ، أقسم سبحانه بهذه الأصناف الخمسة على أن القيامة حق ، وجواب القسم محذوف تقديره : لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ ، وقد دل عليه قوله ﴿يوم ترجف الراجفة * تتبعها

(١) أنشده ابن الأعرابي والمراد : أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شبت وصلعت ؟ (٢) البحر المحيط ٨/٤١٨ .
(٣) تفسير القرطبي ١٩/٢٠٤ . (٤) تفسير الخازن ٤/٢٠٤ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/٥٩٥ ثم قال : وهذا هو الصحيح وعليه الأكثرون .

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾

الرادفة﴾ أي يوم ينفخ في الصُّور النفخة الأولى التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء ، تتبعها النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور قال ابن عباس : الراجفة والرادفة هما النفختان الأولى والثانية ، أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى ، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى[١] . . ثم ذكر تعالى حالة المكذبين وما يلقونه من الشدائد والأهوال فقال ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ﴾ أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة وجلة مضطربة ﴿أبصارُها خاشعةٌ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال يقُولون أئنَّا لَمَرْدودون في الحَافرة﴾ أي يقولون في الدنيا استهزاءً واستبعاداً للبعث : أنردُّ بعد الموت فنصير أحياء بعد فنائنا ونرجع كما كنا أول مرة ؟ قال القرطبي : إذا قيل لهم : إنكم تبعثون قالوا منكرين متعجبين : أنردُّ بعد موتنا إلى أول الأمر ، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت ؟ والعرب تقول : رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء[٢] ﴿أئذا كنَّا عِظاماً نَخرةً﴾ أي هل إذا صرنا عظاماً بالية متفتتة سنرد ونبعث من جديد ؟ ﴿قالوا تِلْك إذاً كرَّةٌ خاسِرةٌ﴾ أي إن كان البعث حقاً ، وبعثنا بعد موتنا فسوف نكون من الخاسرين لأننا من أهل النار ، قال تعالى ﴿فإنما هي زَجْرةٌ واحدةٌ﴾ أي فإنما هي صيحة واحدة ، يُنفخ فيها في الصور للقيام من القبور ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ أي فإذا الخلائق جميعاً على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها . . ثم ذكر تعالى قصة موسى مع فرعون تسليةً لرسول الله ﷺ وتحذيراً لقومه أن يحل بهم ما حلَّ بالطغاة المكذبين من قوم فرعون فقال ﴿هل أتاك حديثُ موسى﴾ أسلوب تشويق وترغيب لسماع القصة أي هل جاءك يا محمد خبر موسى الكليم ؟ ﴿إذْ ناداهُ ربُّهُ بالوادِ المُقدَّس طُوى﴾ أي حين ناجاه ربه بالوادي المطهَّر المبارك المسمَّى ﴿طوى﴾ في أسفل جبل طور سيناء ، قائلاً له ﴿إذْهب إلى فرعونَ إنه طغى﴾ أي إذهب إلى فرعون الطاغية الجبار ، الذي جاوز الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فقُلْ هلْ لكَ إلى أنْ تزكَّى﴾ ؟ أي هل لك رغبةٌ وميلٌ إلى أن تتطهر من الذنوب والآثام ؟ ﴿وأهديكَ إلى ربِّك فتخْشى﴾ أي وأرشدك إلى معرفة ربك وطاعته فتتقيه وتخشاه ؟ قال الزمخشري : ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر ، من خشي الله أتى منه كل خير ، وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العَرْض كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرفيق الرقيق ليستدعيه بالتلطف ، ويستنزله بالمداراة من عتوه كما في قوله تعالى ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾[٣] ﴿فأراهُ الآيةَ الكُبرى﴾ في الكلام محذوف أي فذهب موسى إليه ودعاه وكلَّمه ، فلما امتنع عن الإيمان أراه المعجزة الكبرى ، وهي قلب العصا حيةً تسعى قال القرطبي : أراه العلامة العظمى وهي

(١) تفسير القرطبي ١٩/١٩٣ . (٢) نفس المرجع السابق ١٩/١٩٤ . (٣) تفسير الكشاف ٤/ ٦٩٥ .

فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

المعجزة قال ابن عباس : هـي العصا [١] ﴿فكذَّبَ وعصـى﴾ أي فكذب فرعون نبيَّ الله موسى ، وعصى أمر الله بعد ظهور تلك المعجزة الباهرة ﴿ثُمَّ أدبـرَ يَسعى﴾ أي ولّـى مدبراً هارباً من الحية ، يُسرع في مشيه من هول ما رأى ﴿فحشَـر فنَـادى﴾ أي فجمـع السحرة والجنود والأتباع ، ووقف خطيباً في الناس ﴿فقـال أنـا ربكم الأعلـى﴾ أي فقال لهم بصوت عال : أنا ربكم المعبود العظيم الـذي لا ربَّ فوقي ﴿فأخـذه اللـه نكال الآخرة والأولـى﴾ أي فأهلكه الله عقوبةً له على مقالته الأخيرة ﴿أنـا ربكم الأعلى﴾ والأولى وهي قوله ﴿ما علمتُ لكـم من إلـه غيـري﴾ [٢] ﴿إنَّ في ذلكَ لعِبـرةً لمنْ يخشـى﴾ أي إن فيما ذكر من قصة فرعون وطغيانه ، وما حلَّ به من العذاب والنكال ، لعظة واعتباراً لمن يخاف الله عز وجل ويخشى عقابه . . ولما انتهى الحديث عن قصة الطاغية فرعون ، رجع إلى منكري البعث من كفار قريش فنبههم إلى آثار قدرته ، ومظاهر عظمته وجلاله فقال ﴿أأنتـم أشدُّ خلْقـاً أم السَّماء﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والمعنى هل أنتم يا معشر المشركين أشقُّ وأصعب خلقاً أم خلق السماء العظيمة البديعة ؟ فإن من رفع السماء على عظمها ، هينٌ عليه خلقكم وإحياؤكم بعد مماتكم ، فكيف تنكرون البعث ؟ قال الرازي : نبههم على أمرٍ يُعلم بالمشاهدة ، وذلك لأن خلـق الإنسان على صغره وضعفه ، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير ، وإذا كان كذلك فإعادتهم سهلة فكيف ينكرون ذلك ؟ [٣] كقوله تعالى ﴿لخلق السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس﴾ ﴿بنـاها﴾ أي رفعها عاليةً فوقكم محكمة البناء ، بلا عمد ولا أوتاد ، ثم زاد في التوضيح والبيان فقال ﴿رفعَ سمْكهـا فسوَّاهـا﴾ أي رفع جرمها وأعلى سقفها فوقكم فجعلها مستويةً لا تفاوت فيها ولا شقوق ولا فطور قال ابن كثير : أي جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكلَّلة بالكواكب في الليلة الظلماء [٤] ﴿وأغْطـش ليْلها وأخرجَ ضُحاهـا﴾ أي جعل ليلها مظلماً حالكاً ، ونهارها مشرقـاً مضيئاً قال ابن عباس : أظلم ليلها وأنار نهارهـا [٥] ﴿والأرضَ بعـدَ ذلكَ دحَاهـا﴾ أي والأرض بعد خلق السماء بسطها ومهَّدها لسكنى أهلها [٦] ﴿أخرجَ منهـا ماءَهـا ومرْعاهـا﴾ أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة ، وأجرى فيها الأنهار ، وأنبت فيها الكلأ والمرعى مما يأكله الناس

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/٢٠٢ . (٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، قال ابن عباس : كان بين كلمتيه الفاجرتين أربعون سنة ، فأمهله الله ثم أخذه . (٣) التفسير الكبير للرازي ٣١/٤٣ .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير . (٥) نفس المرجع السابق والصفحة . (٦) لا ينافي هذا القول بكروية الأرض ، فإن ذلك مقطوع به حتى قال الإمام الفخر ما نصه : «كانت الأرض أولاً كالكرة المجتمعة ، ثم إن الله تعالى مدَّها وبسطها ، وليس معنى ﴿دحاها﴾ مجرد البسط ، بل المراد أنه بسطها بسطاً مهيأً لنبات الأقوات ، يدل عليه قوله ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي . .» اهـ التفسير الكبير ٣١/٤٨ .

وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

والأنعام ﴿والجبال أرساها﴾ أي والجبال أثبتها في الأرض ، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي فعل ذلك كله ، فأنبع العيون ، وأجرى الأنهار ، وأنبت الزروع والأشجار ، كل ذلك منفعةً للعباد وتحقيقاً لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم ، قال الرازي : أراد بمرعاها ما يأكله الناسُ والأنعام ، بدليل قوله ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ وانظر كيف دلَّ بقوله : ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام والأنعام من العشب ، والشجر ، والحب ، والثمر ، والعصف ، والحطب ، واللباس والدواء ، حتى الملح والنار ، فالملح متولد من الماء ، والنارُ من الأشجار[١] . . ولما ذكر تعالى خلق السموات والأرض ، وما أبدع فيهما من عجائب الخلق والتكوين ، ليقيم الدليل على إمكان الحشر عقلاً ، أخبر بعد ذلك عن وقوعه فعلاً فقال ﴿فإذا جاءتِ الطَّامَّةُ الكُبْرى﴾ أي فإذا جاءت القيامة وهي الداهية العظمى ، التي تعمُّ بأهوالها كل شيء ، وتعلو على سائر الدواهي قال ابن عباس : هي القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل أمرٍ هائل مفظع[٢] ﴿يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما سعى﴾ أي في ذلك اليوم يتذكر الإنسان ما عمله من خير أو شر ، ويراه مدوَّناً في صحيفة أعماله ﴿وبُرِّزتِ الجحيم لمن يرى﴾ أي أظهرت جهنم للناظرين فرآها الناسُ عياناً ، باديةً لكل ذي بصر . . وبعد أن وصف حال القيامة وأهوالها ، ذكر انقسام الناس إلى فريقين : أشقياء وسعداء فقال ﴿فأمَّا من طَغى﴾ أي جاوز الحدَّ في الكفر والعصيان ﴿وآثر الحياةَ الدنيا﴾ أي فضَّل الحياة الفانية على الآخرة الباقية ، وانهمك في شهوات الحياة المحرَّمة ، ولم يستعد لآخرته بالعمل الصالح ﴿فإن الجحيمَ هي المأوى﴾ أي فإنَّ جهنم المتأججة هي منزله ومأواه ، لا منزل له سواها ﴿وأمَّا مَنْ خاف مقامَ ربِّه﴾ أي وأمَّا من خاف عظمة ربه وجلاله ، وخاف مقامه بين يديْ ربه يوم الحساب ، لعلمه ويقينه بالمبدأ والمعاد ﴿ونهى النَّفسَ عن الهَوى﴾ أي وزجر نفسه عن المعاصي والمحارم ، وكفَّها عن الشهوات التي تودي بها إلى المعاطب ﴿فإنَّ الجنَّةَ هي المأوى﴾ أي فإن منزله ومصيره هي الجنة دار النعيم ، ليس له منزل غيرها[٣] . . ثم ذكر تعالى موقف المكذبين بالقيامة ، المستهزئين بأخبار الساعة فقال ﴿يسألونك عن

(١) التفسير الكبير ٣١/ ٤٩ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٩٨ .

(٣) هذه الآيات الكريمة هي « الميزان الدقيق » لمعرفة الإنسان نفسه ، هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ وهل هو من السعداء أم من الأشقياء ؟ فمن طغى وبغى ، وآثر شهوات الحياة على طاعة ربه فهو الشقي المعذب بالجحيم ، ومن أطاع الله واتقاه ، وسارع إلى مرضاة مولاه ، ونهى النفس عما تهواه فهو السعيد المكرم في دار النعيم ، فليضع الإنسان نفسه في هذا الميزان .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

السَّاعـةِ أيَّان مُرساهَا﴾ أي يسألك يا محمـد هؤلاء المشركون عن القيامـة متـى وقوعهـا وقيامُهـا ؟ قال المفسرون : كان المشركون يسمعون أنباء القيامة ، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل «طامة ، وصاخة ، وقارعة» فيقولون على سبيل الاستهزاء : متى يوجدها الله ويقيمها ، ومتى تحدث وتقع ؟ فنزلت الآية ﴿فيـمَ أنـتَ مـنْ ذِكراها﴾ أي ليس علمها إليك حتى تذكرها لهم ، لأنها من الغيوب التي استأثر اللـه بعلمها ، فلماذا يسألونك عنها ويُلحّون في السؤال ؟ ﴿إلى ربـك منتهاهـا﴾ أي مردُّها ومرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ، لا يعلمه أحد سواه ﴿إنَّمـا أنـتَ مُنـذِر مـنْ يخشاها﴾ أي ما واجبك يا محمد إلا إنذار من يخاف القيامة ، لا الإعلام بوقتها ، وخصَّ الإنذار بمن يخشى ، لأنه هو الذي ينتفع بذلك الإنذار ﴿كأنَّـهم يـومَ يرونهـا لم يلبثـوا إلاَّ عشيـةً أو ضُحاهـا﴾ أي كأن هؤلاء الكفار يوم يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال ، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ، بمقدار عشيةٍ أو ضحاها . قال ابن كثير : يستقصرون مدة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم عشية يوم ، أو ضحى يوم . . ختم تعالى السورة الكريمة ، بما أقسم عليه في أولها من إثبات «الحشر،والبعـث» فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعـة ، وليتناسق البدء مع الختام .

البَــلاَغــَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين الآخرة والأولى في قولـه ﴿فأخـذه اللـه نكال الآخـرة والأولى﴾ لأن المراد كلمتيه الشنيعتين الأولى والأخيرة ، والطباق كذلك بين ﴿عشيةً . . وضحاها﴾ .

٢ ـ جناس الاشتقاق في قوله ﴿ترجف الراجفة﴾ .

٣ ـ المقابلة بين قوله ﴿السماء بناها * رفع سمكها فسوَّاها﴾ وبين ﴿والارض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا﴾ وبين ﴿وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى . .﴾ الآيات .

٤ ـ أسلوب التشويق ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ ؟ فإن المراد منه التشويق الى معرفة القصة .

٥ ـ الطباق بين ﴿الجنة . . والجحيم﴾ وبين ﴿السماء . . والأرض﴾ الوارد في الآيات .

٦ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ .

٧ ـ الاستعارة التصريحية ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ شبَّه أكل الناس برعي الأنعام، واستعـير الرعي للإنسان بجامع أكل الإنسان والحيوان من النباتات ، ففيه استعارة لطيفة .

٨ ـ توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ضحاها ، دحاها ، مرعاهـا ، أرساهـا﴾ وهـو من المحسنات البديعية ويسمى السجع .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة عبس من السور المكية ، وهي تتناول شئوناً تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة ، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة ، والوحدانية في خلق الإنسان ، والنبات ، والطعام ، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها ، وشدة ذلك اليوم العصيب .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى « عبد الله بن أُم مكتوم » الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، ورسولُ الله ﷺ مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، فعبس ﷺ وجهه وأعرض عنه ، فنزل القرآن بالعتاب ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكّى * أو يذكّر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدّى﴾ الآيات .

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان ، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿قُتل الإنسان ما أكفره * من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدّره * ثم السبيل يسّره . .﴾ الآيات .

* ثم تناولت دلائل القدرة في هذا الكون ، حيث يسَّر الله للإنسان سُبُل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة ، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفزع ، وبينت حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم العصيب ﴿فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأُمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه * وجوه يومئذٍ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿عبس وتولّى * أن جاءه الأعمى . . . إلى أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ (من آية ١ إلى ٤٢ نهاية السورة) .

اللغَة : ﴿عَبَس﴾ كلح وجهه وقطَّب ﴿تَصدَّى﴾ تتعرض له وتصغي لكلامه ﴿سفرة﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾

السفرة : الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد جمع سافر مثل كاتب كَتَبَة ﴿أقْبره﴾ جعل له قبراً وأمر أن يُقْبر ﴿قضْباً﴾ القضبُ : كل ما يقطع من البقول فينبت أصلهُ مثل البرسيم « الفصة » والباقلاء ، والكُرَّاث وغيرها ﴿غُلباً﴾ كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان جمع غلباء ﴿أبّاً﴾ الأبُّ : المرعى وكل ما أنبتت الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب ﴿الصاخة﴾ الصيحة التي تصمُّ الآذان لشدتها ﴿مسفرة﴾ مشرقة مضيئة ﴿غَبَرة﴾ غبار ودخان ﴿قَتَرة﴾ سواد وظلمة .

سَبَبُ النُّزول : روي أن النبي ﷺ كان مشغولاً مع صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام ، وكان يطمع في إسلامهم رجاء أن يسلم أتباعهم ، فبينما رسول الله ﷺ مشتغل بمن عنده من وجوه قريش ، جاء إليه « عبد الله بن أم مكتوم » وهو أعمى ، فقال يا رسول الله : علمني مما علَّمك الله ، وكرَّر ذلك وهو لا يعلم أن الرسول مشغول مع هؤلاء المشركين ، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه : يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسَّفلة والعبيد ، فعبس وجهه وأقبل على القوم يكلمهم فأنزل الله ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى﴾ الآيات[١] .

التفسير : ﴿عبَسَ وتولَّى * أنْ جاءَهُ الأعمَى﴾ أي كلح وجهه وقطَّبه وأعرض عنه كارهاً ، لأنْ جاءه الاعمى يسأل عن أمور دينه قال الصاوي : إنما أتى بضمائر الغيبة ﴿عبسَ وتولَّى﴾ تلطفاً به ﷺ وإجلالاً له ، لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة واسم الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويبسط له رداءه[٢] ﴿وما يُدْريكَ لعلَّهُ يزَّكى﴾ أي وما يُعلمك ويخبرك يا محمد لعلَّ هذا الأعمى الذي عبستَ في وجهه ، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة ! ! ﴿أوْ يذكَّر فتنْفعهُ الذكْرى﴾ أي أو يتعظ بما يسمع فتنفعه موعظتك ! ! ﴿أمَّا من استغنى﴾ أي أما من استغنى عن اللهِ وعن الإيمان ، بما له من الثروة والمال ﴿فأنتَ لهُ تصدَّى﴾ أي فأنت تتعرَّض له وتصغي لكلامه ، وتهتم بتبليغه دعوتك ﴿وما عليكَ ألاَّ يزَّكى﴾ أي ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان ، ولست بمطالبٍ بهدايته ، إنما عليك البلاغ قال الألوسي : وفيه مزيد تنفيرٍ له ﷺ عن مصاحبتهم ، فإن الإقبال على المدبر مخلٌّ بالمروءة كما قال القائل :

---

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٢٩٢ وتفسير القرطبي ١٩/ ٢١٠ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٩١ .

وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾

واللـهِ لو كرهــتْ كفــي مُصاحبتي ... يوماً لقلتُ لها عــن صُحْبتـي بِيْني[1]

﴿وأمّــا من جاءكَ يَســعى﴾ أي وأمَّا من جاءك يسرع ويمشي في طلب العلم للهِ ويحرص على طلب الخير ﴿وهُــو يخْشــى﴾ أي وهو يخاف الله تعالى ويتقي محارمه ﴿فأنـتَ عنـهُ تلهَّى﴾ أي فأنت يا محمد تتشاغل عنه ، وتتلهى بالانصراف عنه إلى رؤ ساء الكفر والضلال ! ! ﴿كــلاَّ إنها تذْكــرةٌ﴾ أي لا تفعل بعد اليوم مثل ذلك ، فهذه الآيات موعظة وتبصرة للخلق ، يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها العقلاء ﴿فمــنْ شـاء ذكــره﴾ أي فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن ، واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته ، قال المفسرون : كان ﷺ بعد هذا العتاب ، لا يعبس في وجه فقير قط ، ولا يتصدى لغني أبداً ، وكان الفقراء في مجلسه أمراء ، وكان إذا دخل عليه « ابن أم مكتوم » يبسط له رداءه ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي . . ثم بعد هذا البيان أخبر عن جلالة قدر القرآن فقال ﴿في صحـفٍ مُكــرمـة﴾ أي هو في صحفٍ مكرمة عنـد اللـه ﴿مرفوعـــة مُطهَّــرة﴾ أي عالية القدر والمكانة ، منزهة عن أيدي الشياطين ، وعـن كل دنسٍ ونقص ﴿بأيــدي سَفَـرة﴾ أي بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ﴿كِرام بــررَة﴾ أي مكرمين معظمين عند الله ، أتقياء صلحاء ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤ مرون﴾ ثم ذكر تعالى قبح جريمة الكافر ، وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه فقال ﴿قُتِـل الإنسـان ما أكْفــره﴾ أي لعن الكافر وطرد من رحمة الله ، ما أشدَّ كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده ؟ قال الألوسي : والآية دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات وأفظعها ، وتعجيبٌ من إفراطه في الكفر والعصيان ، وهـذا في غاية الإيجاز والبيان[2] ﴿مِــنْ أيِّ شــيْءٍ خَلَقــه﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه ؟ ثم وضَّح ذلك فقال ﴿مِـنْ نُطْفــةٍ خلقَـه فقدَّره﴾ أي من ماءٍ مهين حقير بدأ خلقه ، فقدَّره في بطن أمه أطواراً من نطفة ثم من علقة إلى أن تمَّ خلقه قال ابن كثير : قدَّر رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقـيٌّ أو سعيد[3] ﴿ثُـمَّ السَّبِيــل يسَّــره﴾ أي ثم سهَّل له طريق الخروج من بطن أمه قال الحسن البصري : كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين[4] ؟ يعني الذكر والفرج ﴿ثُــمَّ أماتهُ فأقْبــره﴾ أي ثم أماته وجعل له قبراً يُوارى فيه إكراماً له ، ولم يجعله ملقى للسباع والوحوش والطيور قال الخازن : وهذه تكرمة لبني آدم على سائر الحيوانات ﴿ثــمَّ إذا شاء أنشَــره﴾ أي ثم حين يشاء الله إحياءه ، يحييه بعد موته للبعـث

(١) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٤٠ . (٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٤٣ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٠٠ . (٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٢١٦ .

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾

والحساب والجزاء[1]، وإنما قال ﴿إذا شــاء﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد ، فهو إلى مشيئة الله تعالى ، متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم ﴿كــلاَّ لمَّـا يقـض ما أمـره﴾ أي ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره ، فإنه لم يؤد ما فرض عليه ، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الايمان والطاعـة . . ولما ذكر خلـق الإنسان ، ذكر بعده رزقه ، ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعـم ، فيشـكر ربـه ويطيعـه فقـال ﴿فلينظـــر الإنسان إلـى طعامـه﴾ أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد نظر تفكر واعتبار ، إلى أمر حياته ، كيف خلقه بقدرته ، ويسره برحمته ، وكيف هيأ له أسباب المعـاش ، وخلـق له الطعـام الـذي به قوام حياته ؟ ! ثم فصَّل ذلك فقال ﴿أنـا صببنـا الماءَ صبًّـاً﴾ أي أنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالاً عجيباً ﴿ثـم شققنـا الأرض شقّـاً﴾ أي شققنا الأرض بخروج النبات منها شقاً بديعاً ﴿فأنبتنـا فيهـا حباً وعنبـاً وقضبـاً﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنـواع الحبـوب والنباتـات : حبـاً يقتـات النـاس به ويدخرونه ، وعنباً شهياً لذيذاً ، وسائر البقول مما يؤكل رطباً ﴿وزيتونـاً ونخْـلاً﴾ أي وأخرجنا كذلك أشجار الزيتون والنخيل ، يخرج منها الزيت والرطب والتمر ﴿وحدائـق غُلبـاً﴾ أي وبساتين كثيرة الأشجار ، ملتفة الأغصان ﴿وفاكهـة وأبّـاً﴾ أي وأنواع الفواكه والثمار ، كما أخرجنا ما ترعاه البهائم قال القرطبي : الأبُّ ما تأكله البهائم من العشب[2] ﴿متاعـاً لكم ولأنعامكـم﴾ أي أخرجنـا ذلك وأنبتنـاه ليكون منفعة ومعاشاً لكم أيها الناس ولأنعامكم قال ابن كثير : وفي هذه الآيات امتنانٌ على العباد وفيها استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة ، على إحياء الأجسـام بعدمـا كانـت عظامـاً باليةً وأوصـالاً متفرقة[3] . . ثم ذكر تعالى بعد ذلك أهوال القيامة فقال ﴿فإذا جاءتِ الصَّاخـة﴾ أي فإذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ الآذان حتى تكاد تصمها ﴿يـوم يفـرُّ المرءُ مـنْ أخيه * وأُمـه وأبيه * وصاحبتِـه وبَنيـه﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يهرب الإنسان من أحبابه ، من أخيه ، وأمـه ، وأبيه ، وزوجتـه ، وأولاده لاشتغاله بنفسه قال في التسهيل : ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه ، ورتبهم على مراتبهم في الحنو والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر ، لأن الإنسان أشدُّ شفقةً على بنيه من كل من تقدم ذكره[4] ﴿لكـل امرىء منهُـم يومئذٍ شأنٌ يُغنيـه﴾ أي لكل إنسان منهم في ذلك اليوم العصيب ، شأنٌ يشغله عن شأن غيره ، فإنه لا يفكر في سوى نفسه ، حتى إن الأنبياء صلوات الله عليهم ليقول الواحد منهـم يومئـذٍ

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢١٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٢٠ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٠١ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٠ .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

« نفسي نفسي »[١] . . ولما بيَّن تعالى حال القيامة وأهوالها ، بيَّن بعدها حال الناس وانقسامهم في ذلك اليوم إلى سعداء وأشقياء ، فقال في وصف السعداء : ﴿وجُـوهٌ يومئذٍ مُسفِـرة﴾ أي وجوه في ذلك اليوم مضيئة مشرقة من البهجة والسرور ﴿ضاحكـة مستبشـرة﴾ أي فرحة مسرورة بما رأته من كرامة الله ورضوانه ، مستبشرة بذلك النعيم الدائم ﴿ووجوهٌ يومئذٍ عليهـا غَبَـرة﴾ أي ووجوه في ذلك اليوم عليها غبارٌ ودخان ﴿ترهقُهـا قتـرة﴾ أي تغشاها وتعلوها ظلمةٌ وسواد ﴿أُولئـك هـم الكفرة الفجـرة﴾ أي أولئك الموصوفون بسواد الوجوه ، هم الجامعون بين الكفر والفجور ، قال الصاوي : جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم الغَبَرة كما جمعوا الكفر إلى الفجور[٢] .

البَـلَاغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في العتاب ﴿عبس وتولَّى . . ثم قال: وما يدريك لعله يزَّكى﴾ ؟ فالتفت تنبيهاً للرسول ﷺ إلى العناية بشأن الأعمى .

٢ ـ جناس الاشتقاق بين ﴿يذكر . . والذكرى﴾ .

٣ ـ الكناية الرائقة ﴿ثم السبيل يسره﴾ كنَّى بالسبيل عن خروجه من فرج الأم .

٤ ـ أسلوب التعجب ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ ؟ تعجبٌ من إفراط كفره ، مع كثرة إحسان الله إليه .

٥ ـ الطباق بين ﴿تصدَّى﴾ وبين ﴿تلهَّى﴾ لأن المراد بها تتعرض وتنشغل .

٦ ـ التفصيل بعد الإجمال ﴿من أي شيءٍ خلقه﴾ ثم فصَّل ذلك وبيَّنه بقوله ﴿من نطفة خلقه فقدَّره * ثم السبيل يسَّره * ثم أماته فأقبره﴾ .

٧ ـ المقابلة اللطيفة بين السعداء والأشقياء ﴿وجوه يومئذٍ مسفرة * ضاحكة مستبشرة﴾ قابلها بقوله ﴿ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرة * تَرهقها قترة﴾ .

٨ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ، وهو من المحسنات البديعية ويسمى السجع مثل ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعل يزكَّى﴾ ومثل ﴿في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة . . ﴾ الخ .

---

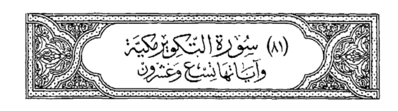
(١) هذا جزء من حديث في الشفاعة أخرجه البخاري ومسلم . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٩٤ .

لطيفـــة : اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ ؟ هذين البيتين :

يتمنـى المرء في الصيف الشتّا ... فـإذا جـاء الشّـتـا أنكره
فهــو لا يرضى بحــالٍ واحـدٍ ... قُتِل الإنسـانُ ما أكفره ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة عبس »

* * *



بين يدي السورة

* سورة التكوير من السور المكية ، وهي تعالج حقيقتين هامتين هما : « حقيقة القيامة » وحقيقة « الوحي والرسالة » وكلاهما من لوازم الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان القيامة وما يصاحبها من انقلابٍ كوني هائل ، يشمل الشمس ، والنجوم ، والجبال ، والبحار ، والأرض ، والسماء ، والأنعام ، والوحوش ، كما يشمل البشر ، ويهز الكون هزاً عنيفاً طويلاً ، ينتثر فيه كل ما في الوجود ، ولا يبقى شيء إلا وقد تبدّل وتغيَّر من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت * وإذا النجومُ انكدرتْ * وإذا الجبالُ سُيِّرت * وإذا العشارُ عطِّلت * وإذا الوحوش حُشرت * وإذا البحارُ سُجرت﴾ الآيات .

* ثم تناولت حقيقة الوحي ، وصفة النبي الذي يتلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور العلم والإيمان ﴿فلا أقسم بالخُنَّس * الجوار الكُنَّس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس * إنه لقول رسولٍ كريم﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم ، وذكرت أنه موعظةٌ من الله تعالى لعباده ﴿فأين تذهبون * إن هو إلا ذكرٌ للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاءَ اللهُ رب العالمين﴾ .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾

اللغة : ﴿انكدرتْ﴾ تناثرت ﴿العشار﴾ جمع عشراء وهي الناقة التي مرَّ على حملها عشرة أشهر ﴿كشطت﴾ نُزعت وقلعت يقال : كشطت جلد الشاة أي نزعته وسلخته عنها ﴿الخُنَّس﴾ الكواكب المضيئة التي تخنس نهاراً وتختفي عن البصر جمع خانس ﴿الكُنَّس﴾ النجوم التي تغيب يقال : كنس إذا دخل الكناس وهو المكان الذي تأوي إليه الظباء ﴿عَسْعس﴾ أقبل بظلامه قال الخليل : عسعس الليلُ : إذا أقبل أو أدبر فهو من الأضداد قال الشاعر :

حتَّى إذا الصبْحُ لها تنفَّسا ... وانجاب عنها ليلها وعسعسا[١]

التفسير : ﴿إذا الشَّمس كُوِّرت﴾ هذه الآيات بيانٌ لأهوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث ، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغيير والتخريب والمعنى : إذا الشمس لُفَّت ومُحي ضوءُها ﴿وإذا النُّجوم انكدرت﴾ أي وإذا النجوم تساقطت من مواضعها وتناثرت ﴿وإذا الجبالُ سُيِّرت﴾ أي وإذا الجبال حركت من أماكنها ،وسُيِّرت في الهواء حتى صارت كالهباء كقوله تعالى ﴿ويوم نسيِّر الجبال وترى الأرض بارزةً﴾ ﴿وإذا العشارُ عُطِّلت﴾ أي وإذا النوق الحوامل تركت هملاً بلا راعٍ ولا طالب ، وخصَّ النوق بالذكر لأنها كرائم أموال العرب ﴿وإذا الوُحُوش حُشرت﴾ أي وإذا الوحوش جُمعت من أوكارها وأجحارها ذاهلةً من شدة الفزع ﴿وإذا البحارُ سُجِّرت﴾ أي وإذا البحار تأججت ناراً ، وصارت نيراناً تضطرم وتلتهب ﴿وإذا النفوسُ زُوجت﴾ أي وإذا النفوس قُرنت بأشباهها ، فقرن الفاجر مع الفاجر ، والصالح مع الصالح قال الطبري : يُقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، وبين الرجل السوء مع الرجل السُّوء في النار[٢] ﴿وإذاالموءُودةُ سُئلت . بأيِّ ذنْبٍ قُتلت﴾ أي وإذا البنت التي دفنت وهي حية سئلت توبيخاً لقاتلها : ما هو ذنبها حتى قتلت ؟ قال في التسهيل : الموءودة هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حيَّةً من كراهته لها أو غيرته عليها ، فتسأل يوم القيامة ﴿بأي ذنبٍ قُتلت﴾ ؟ على وجه التوبيخ لقاتلها[٣] ﴿وإذا الصحفُ نُشرت﴾ أي وإذا صحف الأعمال نشرت وبسطت عند الحساب ﴿وإذا السَّماءُ كُشطت﴾ أي وإذا السماء أزيلت ونزعت من مكانها كما ينزع الجلد

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٣٠ . (٢) هذه رواية الطبري عن عمر بن الخطاب ، وقيل المراد : قرن الأجساد بالأرواح ، والأول أرجح والله أعلم .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨١ .

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾

عن الشاة ﴿وإذا الجحيمُ سُعِّرت﴾ أي وإذا نار جهنم أوقدت وأُضرمت لأعداء الله تعالى ﴿وإذا الجنَّة أزلفت﴾ أي وإذا الجنة أدنيت وقربت من المتقين ﴿علمتْ نفسٌ ما أحضرتْ﴾ أي علمت كل نفسٍ ما أحضرتْ من خيرٍ أو شر ، وهذه الجملة ﴿علمت نفسٌ﴾ هي جواب ما تقدم من أول السورة ﴿إذا الشمسُ كورت﴾ إلى هنا ، والمعنى إذا حدثت تلك الأمور العجيبة الغريبة ، علمت حينئذٍ كل نفسٍ ما قدمته من صالح أو طالح . . ثم أقسم تعالى على صدق القرآن ، وصحةرسالة محمد عليه السلام فقال ﴿فلا أُقْسم بالخُنَّس﴾ أي فأقسم قسماً مؤكداً بالنجوم المضيئة التي تختفي بالنهار ، وتظهر بالليل[1] ﴿الجواري الكُنَّس﴾ أي التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها ، كما تستتر الظباء في كناسها - مغاراتها - قال القرطبي : النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل ، وتكنس وقت غروبها أي تستتر ، كما تكنس الظباء في المغار وهو الكناس[2] ﴿والليل إذا عسْعس﴾ أي وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه حتى غطَّى الكون[3] ﴿والصُبح إذا تنفَّس﴾ أي وبالصبح إذا أضاء وتبلَّج ، واتَّسع ضياؤه حتى صار نهاراً واضحاً ﴿إنه لقولُ رسولٍ كريم﴾ هذا هو المقسم عليه أي إن هذا القرآن الكريم ، لكلامُ الله المنزَّل بواسطة ملك عزيز على الله هو جبريل كقوله تعالى ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ قال المفسرون : أراد بالرسول « جبريل » وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به ، وهو في الحقيقة قول الله تعالى ، ومما يدل على أن المراد به جبريل قوله بعده ﴿ذي قُوةٍ عند ذي العرشِ مكين﴾ أي شديد القوة ، صاحب مكانة رفيعة ، ومنزلة سامية عند الله جل وعلا ﴿مُطاع ثَمَّ أمين﴾ أي مطاعٍ هناك في الملأ الأعلى ، تطيعه الملائكة الأبرار ، مؤتمن على الوحي الذي ينزل به على الأنبياء ﴿وما صاحبكم بمجْنون﴾ أي وليس محمد الذي صاحبتموه يا معشر قريش ، وعرفتم صدقه ونزاهته ورجاحة عقله بمجنون كما زعمتم قال الخازن : أقسم تعالى على أن القرآن نزل به جبريل الأمين ، وأن محمداًﷺ ليس بمجنون كما يزعم أهل مكة ، فنفى تعالى عنه الجنون ، وكون القرآن من عند نفسه[4] ﴿ولقد رآهُ بالأُفقِ المبين﴾ أي وأقسمُ لقد رأى محمدﷺ جبريل في صورته الملكية التي خلقه الله عليها بجهة الأفق الأعلى البيّن من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس قال في البحر : وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء ، حين رأى جبريل على كرسي بين

(١) هذا قول علي وابن عباس ومجاهد والحسن ، كذا في الطبري ٣٠/ ٤٨ . (٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٣٥ .
(٣) هذا القول أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه يقول : أقسم بالليل حين يقبل بظلامه ، وبالنهار حين يقبل بضيائه ،وهو اختيار ابن كثير .
(٤) تفسير الخازن ٤/ ٢١٥ .

وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

السماء والأرض ، في صورته له ستمائة جناح قد سدَّ ما بين المشرق والمغرب[1] ﴿وما هو على الغيبِ بضَنين﴾ أي وما محمد على الوحي ببخيل يقصِّر في تبليغه وتعليمه ، بل يبلغ رسالة ربه بكل أمانةٍ وصدق ﴿وما هو بقَوْلِ شيطَانٍ رجيم﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان ملعون كما يقول المشركون ﴿فأين تذهبون﴾ أيْ فأيَّ طريقٍ تسلكون في تكذيبكم للقرآن ، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر ، مع وضوح آياته وسطوع براهينه ؟ وهذا كما تقول لمن ترك الطريق المستقيم : هذا الطريق الواضح فأين تذهب ؟ ﴿إنْ هو إلاَّ ذكرٌ للعالمين﴾ أي ما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين ﴿لمنْ شاءَ منكُم أنْ يسْتقيم﴾ أي لمن شاء منكم أن يتبع الحق ، ويستقيم على شريعة الله ، ويسلك طريق الأبرار ﴿وما تشاءُون إلاَّ أنْ يشاءَ اللَّهُ ربُّ العالمين﴾ أي وما تقدرون على شيء إلا بتوفيق الله ولطفه ، فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الجناس الناقص بين ﴿الخُنَّس﴾ و﴿الكُنَّس﴾ .

٢ ـ الاستعارة التصريحية ﴿والصبح إذا تنفس﴾ شبَّه إقبال النهار وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التي تحيي القلب ، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس ، وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويراً حيث عبر عنه بتنفس الصبح .

٣ ـ الكناية اللطيفة ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿صاحبكم﴾ .

٤ ـ الطباق بين لفظ ﴿الجحيم . . والجنة﴾ .

٥ ـ الجناس غير التام بين ﴿أمين . . ومكين﴾ .

٦ ـ توافق الفواصل رعاية لرءوس الآيات مثل ﴿كُورت ، سُيِّرَت ، سُجرت ، سُعِرت﴾ ومثل ﴿الخنس ، الكنس ، عسعس ، تنفس﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير »

* * *

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٣٤ .

(٨٢) سورة الانفطار مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الانفطار من السور المكية ، وهي تعالج - كسابقتها سورة التكوير - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة ، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام ، ثم بيان حال الأبرار ، وحال الفجار ، يوم البعث والنشور .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون ، من انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، وبعثرة القبور ، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿إذا السماءُ انْفطرتْ * وإذا الكواكبُ انتثرتْ * وإذا البِحارُ فُجرتْ * وإذا القبورُ بُعثرتْ * علمتْ نفسٌ ما قدَّمتْ وأخرت﴾ .

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه ، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسوَّاك فعدلك * في أي صورةٍ ما شاء ربك﴾ ؟ !

* ثم ذكرت علَّة هذا الجحود والإنكار ، ووضحت أن الله تعالى وكَّل بكل إنسان ملائكةً يسجلون عليه أعماله ، ويتعقبون أفعاله ﴿كلاَّ بل تكذبون بالدين * وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ .

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين : أبرار ، وفجار ، وبيَّنت مآل كل من الفريقين ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم * يصلونها يوم الدين . .﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله ، وتجرد النفوس يومئذٍ من كل حول وقوة ، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، والأمر يومئذٍ لله﴾ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾

اللغــة : ﴿انفطرت﴾ انشقت ، والفطرُ : الشقُ ومنه فطر نابُ البعير ﴿انتثرت﴾ تساقطت وتهاوت ﴿بُعثرت﴾ قُلبت يقال : بعثرت المتاع قلبته ظهراً لبطن ﴿غـرّك﴾ خدعـك ﴿سـوّاك﴾ جعـل أعضاءك سليمة سويّة ﴿يصلونها﴾ يدخلونها ويذوقون لهبها وحرَّها .

التفسيـر : ﴿إذا السَّماءُ انفطرتْ﴾ أي إذا السماء انشقت بأمر الله لنزول الملائكة كقوله تعالى ﴿ويوم تشقق السماءُ بالغمام ونُزِّل الملائكةُ تنزيلاً﴾ ﴿وإذا الكواكِبُ انْتثرتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ، وزالت عن بروجها وأماكنها ﴿وإذا البحارُ فُجِّرت﴾ أي وإذا البحار فتح بعضها إلى بعض ، فاختلط عذبها بمالحها ، وأصبحت بحراً واحداً ﴿وإذا القبورُ بُعثرتْ﴾ أي وإذا القبور قلبت ، ونبش ما فيها من الموتى ، وصار ما في باطنها ظاهراً على وجهها ﴿علِمتْ نفسٌ ما قدَّمتْ وأخَّرتْ﴾ هذا هو الجواب أي علمت عندئذٍ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر ، وما قدمت من صالح أو طالح قال الطبري : ما قدمت من عمل صالح ، وما أخرت من شيء سنَّه فعمل به بعده[1] ثم بعد ذكر أحوال الآخرة وأهوالها ، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال وشدائد فقال تعالى ﴿يا أيها الإنسانُ ما غرَّك بربِّك الكريم﴾ أيْ أيُّ شيءٍ خدعك بربك الحليم الكريم ، حتى عصيته وتجرأت على مخالفة أمره ، مع إحسانه إليك وعطفه عليك ؟[2] وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال : كيف قابلتَ إحسان ربك بالعصيان ، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿هل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسانُ﴾ ؟ ثم عدَّد نعمه عليه فقال ﴿الذي خلقكَ فسوَّاك﴾ أي الذي أوجدك من العدم ، فجعلك سوياً سالم الأعضاء ، تسمع وتعقل وتبصر ﴿فعدَلك﴾ أي جعلك معتدل القامة منتصباً في أحسن الهيئات والأشكال ﴿في أي صورةٍ ما شاءَ ركَّبك﴾ أي ركبك في أي صورة شاءها واختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ولم يجعلك في الشكل كالبهيمة كقوله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويم﴾ . . ثم وبَّخ المشركين على تكذيبهم بيوم الدين فقال ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ أي ارتدعوا يا أهل مكة ، ولا تغتروا بحلم الله ، بل أنتم تكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وإنَّ عليكم لحافظين﴾ أي والحالُ أن عليكم ملائكة حفظة يضبطون

(١) تفسير الطبري ٣٠/ ٥٤ . (٢) هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجيب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه ، وليست واردة على سبيل تلقين الحجة كما قال البعض حتى قالوا : يلقنه أن يقول : غرني كرمك ، ويؤيد ما ذكرناه قول عمر : غره حمقه وجهله .

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

أعمالكم ويراقبون تصرفاتكم قال القرطبي : أي عليكم رقباء من الملائكة[1] ﴿كراماً كاتبين﴾ أي كراماً على الله ، يكتبون أقوالكم وأعمالكم ﴿يعلمون ما تفعلون﴾ أي يعلمون ما يصدر منكم من خير وشر ، ويسجلونه في صحائف أعمالكم ، لتجازوا به يوم القيامة . . ثم بيَّن تعالى انقسام الخلق يوم القيامة إلى أبرار وفجار ، وذكر مآل كلٍ من الفريقين فقال ﴿إنَّ الأبرار لفي نعيم﴾ أي إن المؤمنين الذين اتقوا ربهم في الدنيا ، لفي بهجة وسرور لا يوصف ، يتنعمون في رياض الجنة بما لا عينٌ رأتْ ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهم مخلدون في الجنة ﴿وإنَّ الفجار لفي جحيم﴾ أي وإن الكفرة الفجار ، الذين عصوا ربهم في الدنيا ، لفي نار محرقةٍ ، وعذاب دائم مقيم في دار الجحيم ﴿يصلونها يوم الدين﴾ ؟ أي يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي وليسوا ببعيدين عن جهنم لا يرونها ، بل هي أمامهم يصلون حرّها ويذوقون عذابها ولا يخرجون منها أبداً ﴿وما أدراك ما يومُ الدين﴾ تعظيمٌ له وتهويل أي ما أعلمك ما هو يوم الدين ؟ وأيُّ شيء هو في شدته وهوله ؟ ﴿ثم ما أدراك ما يومُ الدين﴾ ؟ كرر ذكره تعظيماً لشأنه ، وتهويلاً لأمره كقوله ﴿الحاقة ما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة﴾ ؟ كأنه يقول : إن يوم الجزاء من شدته بحيث لا يدري أحدٌ مقدار هوله وعظمته ، فهو فوق الوصف والبيان ﴿يومَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً﴾ أي هو ذلك اليوم الرهيب الذي لا يستطيع أحد أن ينفع أحداً بشيء من الأشياء ، ولا أن يدفع عنه ضراً ﴿والأمْرُ يومئذٍ لله﴾ أي والأمر في ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿قدَّمت﴾ و﴿أخرت﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٢ ـ المقابلة اللطيفة بين الأبرار والفجار ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإنَّ الفجار لفي جحيم﴾ فقد قابل الأبرار بالفجار ، والنعيم بالجحيم وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى بالترصيع .

٣ ـ الاستعارة المكنية ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ شبَّه الكواكب بجواهر قطع سلكها فتناثرت متفرقة ، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الانتثار على طريق الاستعارة المكنية .

٤ ـ الاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ ؟

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٤٥ .

٥ ـ التنكير في كلٍ من لفظة ﴿نعيم﴾ و ﴿جحيم﴾ للتعظيم والتهويل .

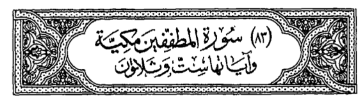
٦ ـ الإطناب بإعادة الجملة ﴿وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ ؟ لتعظيم هول ذلك اليوم وبيان شدته كأنه فوق الوصف والخيال .

٧ ـ السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت﴾ ومثل ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين﴾ ومثل ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾ .

لطيفـــة : روي أن الخليفة « سليمان بن عبد الملك » قال لأبي حازم المزني : ليت شعري أين مصيرنا يوم القيامة ؟ وما لنا عند الله ؟ فقال له : اعرضْ عملك على كتاب الله تجد ما لك عند الله ! فقال : وأين أجد ذلك في كتاب الله ! ! قال : عند قوله تعالى ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾ قال سليمان : فأين إذاً هي رحمة الله ؟ فأجابه بقوله ﴿إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار » .

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* هذه السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، تعالـج أمـور العقيدة وتتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء .

* ابتدأت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين في الكيل والوزن ، الذين لا يخافون الآخرة ولا يحسبون حساباً للوقفة الرهيبة بين يدي أحكم الحاكمين ﴿ويـلٌ للمطففين * الذين إذا اكتالـوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ .

* ثم تحدثت عن الأشقياء الفجار ، وصوَّرت جزاءهم يوم القيامة ، حيث يساقون إلى الجحيم

مع الزجر والتهديد ﴿كلاَّ إنَّ كتاب الفجار لفي سجِّين * وما أدراك ما سجين * كتابٌ مرقوم * ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ الآيات .

* ثم عرضت لصفحة المتقين الأبرار ، وما لهم من النعيم الخالد الدائم،في دار العز والكرامة ، وذلك في مقابلة ما أعدَّه الله للأشقياء الأشرار ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إنَّ الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يُسقون من رحيقٍ مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال ، من عباد الله الأخيار ، حيث كانوا يهزءون بهم في الدنيا ويسخرون عليهم لإيمانهم وصلاحهم ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ إلى آخر السورة الكريمة :

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾

اللغة : ﴿المطففين﴾ جمع مُطفِّف وهو الذي ينقص في الكيل والوزن ، والتطفيف : النقصان وأصله من الطفيف وهو الشيء اليسير ، لأن المطفِّف لا يكاد يسرق في الكيل والوزن إلا الشيء اليسير ﴿ران﴾ غطَّى وغشَّى كالصدأ يغشى السيف ، وأصله الغلبة يقال : رانت الخمر على عقل شاربها أي غلبته قال الشاعر :

« وكمْ رانَ من ذنبٍ على قلب فاجر »[١]

﴿رحيق﴾ أجود الخمر وأصفاه وفي الصحاح : الرحيق صفوة الخمر وقال الأخفش : هو الشراب الذي لا غش فيه قال حسان :

بَرَدى يُصفِّق بالرحيقِ السَّلْسَلِ [٢]

﴿فكهين﴾ معجبين متلذذين ﴿يتغامزون﴾ يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً ﴿ثُوب﴾ جوزي ﴿تسنيم﴾ عينٌ عالية شرابها أشرف شراب ، وأصل التسنيم الارتفاع ومنه سنام البعير .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله عز وجل ﴿ويلٌ للمطففين﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك »[٣] .

التفسير : ﴿ويلٌ للمُطفِّفين﴾ أي هلاك وعذاب ودمار ، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان ، ثم بيَّن أوصافهم القبيحة بقوله ﴿الذين إذا اكتالوا على الناسِ يستوفون﴾ أي إذا

(١) البحر المحيط ٨/٤٣٨ . (٢) القرطبي ١٩/٢٦٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/٦١٣ .

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافياً كاملاً لأنفسهم ﴿وإذا كالوهم أو وزنُوهُم يُخسرون﴾ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصون الكيل والوزن قال المفسرون : نزلت في رجل يُعرف بـ « أبي جهينة » كان له صاعان ، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر ، وهو وعيدٌ لكل من طفَّف الكيل والوزن ، وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان ،وفي الحديث (ولا طففوا الكيل إلاّ منعوا النبات وأخذوا بالسنين) [١] ﴿ألا يظُنُّ أولئكَ أنَّهم مبعوثُون ليوم عظيم﴾ أي ألا يعلم ويستيقن أولئك المطففون أنهم سيبعثون ليوم عصيب ، شديد الهول ، كثير الفزع ؟ ! ﴿يوم يقوم الناسُ لربِّ العالمين﴾ أي يوم يقفون في المحشر حفاةً عراةً ، خاشعين خاضعين لرب العالمين قال في البحر : وفي هذا الإنكار والتعجيب ، ووصف اليوم بالعظم ، وقيام الناس لله خاضعين ، ووصفهُ برب العالمين ، دليلٌ على عظم هذا الذنب وهو التطفيف[٢] ، وفي الحديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أُذنيه[٣] . . ثم ذكر تعالى مآل الفجار ، ومآل الأبرار فقال ﴿كلاّ إنَّ كتابَ الفُجَّار لفي سِجِّين﴾ أي ليرتدع هؤلاء المطففون عن الغفلة عن البعث والجزاء ، فإن كتاب أعمال الأشقياء الفجار ، لفي مكان ضيّق في أسفل سافلين ﴿وما أدراكَ ما سجّينٌ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أي هل تعلم ما هو سجين ؟ ﴿كتابٌ مرقومٌ﴾ أي هو كتاب مكتوبٌ كالرقم في الثوب ، لا ينسى ولا يمحى ، أُثبتت فيه أعمالهم الشريرة قال ابن كثير : ﴿سجين﴾ مأخوذ من السجن وهو الضيق ، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل سافلين ، وهي تجمع الضيق والسفول ، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم أي مكتوبٌ مفروغ منه ، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد[٤] ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ أي يكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وما يكذِّب به إلا كلُّ معتدٍ أثيم﴾ أي وما يكذب بيوم الحساب والجزاء ألا كل متجاوز الحد في الكفر والضلال ، مبالغ في العصيان والطغيان ،كثير الآثام ، ثم وضّح من إجرامه فقال ﴿إذا تتلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأولين﴾ أي إذا تليت عليه آيات القرآن ، الناطقة بحصول البعث والجزاء ، قال عنها : هذه حكايات وخرافات الأوائل ، سطروها وزخرفوها في كتبهم ﴿كلا بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل ، فليس القرآن أساطير الأولين ، بل

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس مرفوعاً ، وانظر الألوسي ٣٠/ ٧١ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٤٤٠ . (٣) أخرجه الشيخان ومالك (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦١٤ .

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾

غطّى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب ، فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي قال المفسرون : الرَّان هو الذنب على الذنب حتى يسودَّ القلب[1] ﴿كلاَّ إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ أي ليرتدع هؤلاء المكذبون عن غيهم وضلالهم ، فهم في الآخرة محجوبون عن رؤية المولى جل وعلا فلا يرونه قال الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل وقال مالك : لما حجب أعداءه فلم يروه، تجلّى لأوليائه حتى رأوه[2] ﴿ثمَّ إنَّهم لصالوا الجحيم﴾ أي ثم إنهم مع الحرمان عن رؤية الرحمن ، لداخلو الجحيم وذائقو عذابها الأليم ﴿ثم يُقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ أي ثم تقول لهم خزنة جهنم على وجه التقريع والتوبيخ : هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ﴿أفسحرٌ هذا أم أنتم تُبصرون﴾ ؟ . . وبعد الحديث عن حال الفجار ، ذكر تعالى نعيم الأبرار فقال ﴿كلاَّ إن كتاب الأبرار لفي علّيين﴾ ﴿كلاَّ﴾ ردعٌ وزجر أي ليس الأمر كما يزعمون من مساواة الفجار بالأبرار ، بل كتابهم في سجين ، وكتاب الأبرار في عليين ، وهو مكان عالٍ مشرَّف في أعلى الجنة قال في التسهيل : ولفظ ﴿علِّيين﴾ للمبالغة ، وهو مشتق من العلوِّ لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة ، أو لأنه في مكان عليٍّ رفيع فقد روي أنه تحت العرش[3] ﴿وما أدراك ما علِّيون﴾ تفخيمٌ وتعظيم لشأنه أي وما أعلمك يا محمد ما هو عليون ؟ ﴿كتابٌ مرقومٌ يشهده المقربون﴾ أي كتابُ الأبرار كتابٌ مسطَّر ، مكتوب فيه أعمالهم ، وهو في عليين في أعلى درجات الجنة ، يشهده المقربون من الملائكة قال المفسرون : إن روح المؤمن إذا قُبضت صُعد بها إلى السماء ، وفتحت لها أبواب السماء ، وتلقتها الملائكةُ بالبشرى ، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش ، فيخرج لهم رقٌّ فيكتب فيه ويختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب ويشهده المقربون[4] ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ أي إن المطيعين لله في الجنات الوارفة ، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿على الأرائك ينظرون﴾ أي هم على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور ، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ﴿تعرفُ في وجوههم نضرةَ النَّعيم﴾ أي إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة ، لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن ، ومن بهجة السرور ورونقه ﴿يُسْقَونَ من رحيقٍ مختوم﴾ أي يُسقون من خمرٍ في الجنة ، بيضاء طيبة صافية ، لم تكدرها الأيدي ، قد ختم على

(١) وفي الحديث (إن العبد إذا أخطأ خطيئة، نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه) وهو الرانُ الذي ذكر الله في كتابه ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ رواه الترمذي . (٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٥٩ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٥ . (٤) ذكره القرطبي عن كعب ١٩/ ٢٦٠ .

خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

تلك الأواني فلا يفك ختمها إلا الأبرار ﴿ختامُه مسك﴾ أي آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ﴿وفي ذلك فليتنافس المُتنافسون﴾ أي وفي هذا النعيم والشراب الهنيء ، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله ، وليتسابق المتسابقون قال الطبري : التنافسُ مأخوذ من الشيء النفيس الذي يحرص عليه الناس ، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم والمعنى فليستبقوا في طلب هذا النعيم ، ولتحرص عليه نفوسهم[1] ﴿ومزاجه منْ تسنيم﴾ أي يمزج ذلك الرحيق من عينٍ عالية رفيعة ، هي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تسمى « التسنيم ». ولهذا قال بعده ﴿عيناً يشربُ بها المقربون﴾ أي هي عينٌ في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً ، وتمزج لسائر أهل الجنة قال في التسهيل : تسنيم اسمٌ لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً ، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار ، فدل ذلك على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار[2] . . ولما ذكر تعالى نعيم الأبرار ، أعقبه بذكر مآل الفجار ، تسليةً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم فقال ﴿إنَّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمَنوا يضحكون﴾ أي أن المجرمين الذين من طبيعتهم الإجرام وارتكاب الآثام ، كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين استهزاءً بهم قال في التسهيل : نزلت هذه الآية في صناديد قريش كأبي جهل وغيره ، مرَّ بهم علي بن أبي طالب وجماعة من المؤمنين ، فضحكوا منهم واستخفوا بهم[3] ﴿وإذا مروا بهم يتغامزُون﴾ أي وإذا مرَّ هؤلاء المؤمنون بالكفار ، غمز بعضهم بعضاً بأعينهم سخرية واستهزاءً بهم قال المفسرون : كان المشركون إذا مرَّ بهم أصحاب رسول الله ، تغامزوا بأعينهم عليهم احتقاراً لهم وازدراءً يقولون : جاءكم ملوك الدنيا ، يسخرون منهم لإيمانهم واستمساكهم بالدين ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ أي وإذا انصرف المشركون ورجعوا إلى منازلهم وأهليهم ، رجعوا متلذذين يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم قال في البحر : أي رجعوا متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم استخفافاً بأهل الإيمان[4] ﴿وإذا رأوهم قالوا إنَّ هؤلاء لضالُّون﴾ أي وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا : إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد ، وتركهم شهوات الحياة قال تعالى رداً عليهم ﴿وما أُرسلوا عليهم حافظين﴾ أي وما أُرسل الكفار حافظين على المؤمنين ، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم ، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول : أنا ما أرسلتهم رقباء ، ولا وكلتهم بحفظ أعمال عبادي المؤمنين ، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم ، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيهم ؟ ﴿فاليوم الذين آمنوا

(١) تفسير الطبري ٣٠/٦٨ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٨٥ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٨٦ . (٤) البحر المحيط ٨/٤٤٣ .

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

من الكفار يضحكون﴾ أي ففي هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ يضحك المؤمنون من الكفار ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا ، جزاءً وفاقاً ﴿على الأرائك ينظرون﴾ أي والمؤمنون على أسرَّة الدر والياقوت ، ينظرون إلى الكفار ويضحكون عليهم قال القرطبي : يقال لأهل النار وهم في النار اخرجوا ، فتفتح لهم أبواب النار ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم ، فيضحك منهم المؤمنون[1] ﴿هل ثُوِّب الكفَّار ما كانوا يفعلون﴾ أي هل جوزي الكفار في الآخرة بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء ؟ نعم .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التنكير للتهويل والتفخيم ﴿ويلٌ للمطففين﴾ .

٢ ـ الطباق بين ﴿يستوفون﴾ و ﴿يخسرون﴾ .

٣ ـ المقابلة بين حال الفجار والأبرار ﴿كلاَّ إن كتاب الفجار . . ﴾ الخ و﴿كلاَّ إن كتاب الأبرار لفي عليين . . ﴾ الخ .

٤ ـ التفخيم والتعظيم لمراتب الأبرار ﴿وما أدراك ما عليون﴾ ؟

٥ ـ جناس الاشتقاق ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ .

٦ ـ الإطناب بذكر أوصاف ونعيم المتقين ﴿إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ .

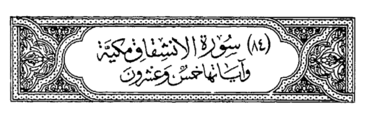
٧ ـ التشبيه البليغ ﴿ختامه مسك﴾ أي كالمسك في الطيب والبهجة ، فحذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٨ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يضحكون ، ينظرون ، يكسبون ، يفعلون﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين »

***

(١) تفسير القرطبي ١٩/٢٦٨



(٨٤) سورة الانشقاق مكية وآياتها خمس وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الإنشقاق مكية ، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة ، كشأن سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة ، وصوَّرت الانقلاب الذي يحدث في الكون عند قيام الساعة ﴿إذا السماء انشقتْ * وأذنت لربها وحقَّت * وإذا الأرض مُدَّت * وألقتْ ما فيها وتخلَّت * وأذنتْ لربها وحُقَّت﴾ .

* ثم تحدثت عن خلق الإنسان الذي يكدّ ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه ، ليقدِّم لآخرته ما يشتهي من صالحٍ أو طالحٍ ، ومن خيرٍ أو شر ، ثم هناك الجزاء العادل ﴿يا أيها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربك كدْحاً فملاقيهِ * فأمَّا مَنْ أُوتيَ كتابهُ بيمينهِ فسوف يُحاسب حِساباً يسيراً﴾ الآيات .

* ثم تناولت موقف المشركين من هذا القرآن العظيم ، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال والشدائد ، ويركبون الأخطار والأهوال في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد ﴿فلا أُقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبنَّ طبقاً عن طبق﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله ، مع وضوح آياته وسطوع براهينه ، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ﴿فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكذبون * واللهُ أعلمُ بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إذا السماء انشقت . . إلى . . لهم أجرٌ غير ممنون﴾
(من آية ١ إلى ٢٥ نهاية السورة) .

اللغــة : ﴿كادحٌ﴾ الكدح : الجد والاجتهاد وجهد النفس في العمل قال الشاعر :

ومضتْ بشاشةُ كل عيشٍ صالح   وبقيتُ أكدحُ للحياةِ وأنصب[1]

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٤٤ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾

﴿يحور﴾ يرجع يقال : حار يحور إذا رجع ومنه حديث (أعوذ بك من الحور بعد الكور) أي الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ﴿الشَّفق﴾ الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس ﴿وسق﴾ جمع وضم ولف ﴿اتسق﴾ اجتمع وتكامل وتم نوره ﴿ممنون﴾ مقطوع .

التفسير : ﴿إذا السماء انشقت﴾ هذه الآيات بيان لأهوال القيامة ، وتصويرٌ لما يحدث بين يدي الساعة من كوارث وأهوال يفزع لها الخيال والمعنى : إذا تشققت السماء وتصدَّعت مؤذنة بخراب الكون قال الألوسي : تنشق لهول يوم القيامة [١] ﴿وأذنتْ لربِّها وحُقَّت﴾ أي واستمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع وأن تنشق من أهوال القيامة ﴿وإذا الأرضُ مُدَّت﴾ أي وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها ، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿وألقتْ ما فيها وتخلَّت﴾ أي رمت ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم قال القرطبي : أخرجت أمواتها وتخلت عنهم ، وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقي الحامل ما في بطنها من الحمل ، وذلك يؤذن بعظم الهول [٢] ﴿وأذنتْ لربِّها وحُقَّت﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت ، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع . . وجواب ﴿إذا﴾ محذوف ليكون أبلغ في التهويل أي إذا حدث كل ما تقدم ، لقي الإنسان من الشدائد والأهوال ، ما لا يحيط به الخيال . . ثم أخبر تعالى عن كدِّ الإنسان وتعبه في هذه الحياة ، وأنه يلقى جزاءه عند الله فقال ﴿يا أيها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ الخطاب عام لكل إنسان أي أنت يا ابن آدم جاهدٌ ومجدٌّ بأعمالك التي عاقبتها الموت ، والزمانُ يطير وأنت في كل لحظة تقطع شوطاً من عمرك القصير ، فكأنك سائر مسرعٌ إلى الموت ، ثم تلاقي ربك فيكافئك على عملك ، إن كان خيراً فخيرٌ ، وإن كان شراً فشرٌّ قال في البحر : كادحٌ أي جاهد في عملك من خير وشر طول حياتك إلى لقاء ربك ، فملاقٍ جزاء كدحك من ثوابٍ وعقاب [٣] . . ثم ذكر تعالى انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء وإلى من يأخذ كتابه بيمينه ، ومن يأخذ كتابه بشماله فقال ﴿فأمَّا منْ أُوتيَ كتابه بيمينه﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه ، وهذه علامة السعادة ﴿فسوف يُحاسبُ حساباً يَسيراً﴾ أي فسوف يكون حسابه سهلاً

(١) روح المعاني ٣٠/٧٨ . (٢) تفسير القرطبي ١٩/٢٦٨ . (٣) البحر المحيط ٨/٤٤٦ .

وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

هيناً ، يُجازى على حسناته ، ويُتجاوز عن سيئاته ، وهذا هو العرضُ كما جاء في الحديث الصحيح[١] ﴿وينقلبُ إلى أهلهِ مسروراً﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة مبتهجاً مسروراً بما أعطاه الله من الفضل والكرامة ﴿وأما منْ أوتيَ كتابهُ وراء ظهره﴾ أي وأمَّا من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره ، وهذه علامة الشقاوة ﴿فسوف يدعُوا ثُبوراً﴾ أي يصيح بالويل والثبور ، ويتمنى الهلاك والموت ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي ويدخل ناراً مستعرة ، يقاسي عذابها وحرَّها ﴿إنه كان في أهله مسروراً﴾ أي لأنه كان في الدنيا مسروراً مع أهله ، غافلاً لاهياً ، لا يفكر في العواقب ، ولا تخطر بباله الآخرة قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة ، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها ، فأعقبهم به الحزن الطويل[٢] ﴿إنه ظنَّ أنْ لن يحور﴾ أي إنه ظنَّ أن لن يرجع إلى ربه ، ولن يحييه الله بعد موته للحساب والجزاء ، فلذلك كفر وفجر ﴿بلى إنَّ ربه كان به بصيراً﴾ أي بلى سيعيده الله بعد موته ، ويجازيه على أعماله كلها خيرها وشرها ، فإنه تعالى مطلع على العباد ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ﴿فلا أقسم بالشَّفق﴾ ﴿لا﴾ لتأكيد القسم أي فأقسم قسماً مؤكداً بحمرة الأفق بعد غروب الشمس ﴿والليل وما وسق﴾ أي وبالليل وما جمع وضمَّ إليه ، وما لفَّ في ظلمته من الناس والدواب والهوام قال المفسرون : الليل يسكن فيه كل الخلق ، ويجمع ما كان منتشراً في النهار من الخلق والدواب والأنعام ، فكلٌّ يأوي إلى مكانه وسربه ، ولهذا امتن تعالى على العباد بقوله ﴿وجعل اللَّيل سكناً﴾ فإذا جاء النهار انتشروا ، وإذا جاء الليل أوى كل شيء إلى مأواه ﴿والقمر إذا اتَّسق﴾ أي وأقسمُ بالقمر إذا تكامل ضوءه ونوره ، وصار بدراً ساطعاً مضيئاً ﴿لتركبُنَّ طبقاً عن طبق﴾ هذا جواب القسم أي لتلاقُنَّ يا معشر الناس أهوالاً وشدائد في الآخرة عصيبة قال الألوسي : يعني لتركبن أحوالاً بعد أحوال ، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض ، وهي الموتُ وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها[٣] وقال الطبري : المراد أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً[٤] ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ استفهام يقصد به التوبيخ أي فما لهؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله ، ولا يصدّقون بالبعث بعد الموت ، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه ؟ ﴿وإذا قُرىء عليهمُ القرآنُ

---

(١) المراد بالحساب اليسير في الآية هو « العرض » لما روي أن النبي ﷺ قال : (من حوسب عُذب) فقالت عائشة : أوليس الله عز وجل يقول ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ ! ! فقال ﷺ (إنما ذلك العرضُ ولكن من نوقش الحساب عُذب) رواه البخاري ومسلم . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله يدني العبد يومَ القيامة ، حتى يضع كنفه عليه ، فيقول له : فعلت كذا وكذا ، ـ ويعدد عليه ذنوبه ـ ثم يقول له : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم) فهذا هو المراد من الحساب اليسير . (٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٧١ .
(٣) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٨٢ . (٤) تفسير القرطبي ٣٠/ ٨٠ .

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

﴿لا يسجُدون﴾ أي وإذا سمعوا آيات القرآن ، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن ؟ ﴿بل الذين كفروا يُكذِّبون﴾ أي بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والعناد والجحود ، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿واللهُ أعلمُ بما يوعون﴾ أي والله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب قال ابن عباس : ﴿يوعون﴾ أي يضمرون من عداوة الرسول ﷺ والمؤمنين[1] ﴿فبشرهم بعذابٍ أليم﴾ أي فبشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم موجع ، واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم قال في التسهيل : ووضع البشارة في موضع الإنذار تهكم بالكفار[2] ﴿إلاَّ الذينَ آمنُوا وعملوا الصالحات﴾ أي لكنْ الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وجمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لهُم أجرٌ غيرُ ممنُون﴾ أي لهم ثوابٌ في الآخرة غير منقوص ولا مقطوع ، بل هو دائم مستمر . ختم تعالى السورة الكريمة ببيان نعيم الأبرار ، بعد أن ذكر مآل الفجار ، وهو توضيح لما أجمله في أول السورة من ملاقاة كل عامل لجزائه في قوله ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين لفظ ﴿السماء﴾ و ﴿الأرض﴾ .

٢ ـ المقابلة بين ﴿فأما من أُوتي كتابه بيمينه﴾ وبين ﴿وأما من أُوتي كتابه وراء ظهره﴾ .

٣ ـ الكناية ﴿لتركبنَّ طبقاً عن طبق﴾ كنَّى به عن الشدة والأهوال التي يلقاها الإنسان .

٤ ـ الجناس الناقص بين كلمتي ﴿وسق﴾ و ﴿اتسق﴾ .

٥ ـ الأسلوب التهكمي ﴿فبشرهم بعذابٍ أليم﴾ استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار .

٦ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقت﴾ ومثل ﴿فلا أُقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبنَّ طبقاً عن طبق﴾ ويسمى بالسجع وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الإنشقاق »

* * *

(١) البحر المحيط ٨/٤٤٨ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٨ .



بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية ، وهي تعرض لحقائق العقيدة الإسلامية ، والمحورُ الذي تدور عليه السورة الكريمة هي حادثة « أصحاب الأخدود » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة ، ومداراتها الضخمة ، التي تدور فيها تلك الأفلاك ، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة ، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين ، الذين طرحوا المؤمنين في النار ليفتنوهم عن دينهم ﴿والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهدٍ ومشهود * قتل أصحابُ الأخدود * النارذاتِ الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ الآيات .

* ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة ﴿إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ .

* وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأولياءه ﴿إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بقصة الطاغية الجبار « فرعون » وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * في لوحٍ محفوظ﴾ وهو ختم رائع يناسب موضوع السورة الكريمة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿والسَّماء ذات البروج . . إلى . . بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾
من آية (١) إلى آية (٢٢) نهاية السورة الكريمة .

اللغــة : ﴿الأُخدود﴾ الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق ، وجمعه أخاديد ﴿قُتل﴾ لُعن أشدَّ اللعن ﴿نقموا﴾ عابوا وكرهوا ﴿بطش﴾ البطش : الأخذ بشدة ﴿يُبدىء﴾ يخلق ابتداءً بقدرته ﴿المجيد﴾ العظيم الجليل المتعالي .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ

التفسير : ﴿والسَّماءِ ذاتِ البُروجِ﴾ أي وأُقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة ، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها قال المفسرون : سميت هذه المنازل بروجاً لظهورها ، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها لأنها منازل للكواكب السيارة ﴿واليومِ الموعُودِ﴾ أي وأُقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة ، الذي وعد الله به الخلائق بقوله ﴿اللهُ لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ ﴿وشاهدٍ ومشهودٍ﴾ أي وأُقسم بمحمد والأنبياء الذين يشهدون على أممهم يوم القيامة ، وبجميع الأمم والخلائق الذين يجتمعون في أرض المحشر للحساب كقوله تعالى ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ وقيل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم ودليله ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[1] ﴿قُتِلَ أصحابُ الأُخدودِ﴾ هذا هو جواب القسم ، والجملة دعائية أي قاتل الله ولعن أصحاب الأخدود ، الذين شقوا الأرض طولاً وجعلوها أخاديد ، وأضرموا فيها النار ليحرقوا بها المؤمنين قال القرطبي : الأخدودُ الشقُّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق وجمعه أخاديد ، ومعنى ﴿قُتِلَ﴾ أي لعن ، قال ابن عباس : كل شيءٍ في القرآن ﴿قتل﴾ فهو لعن[2] .. ثم فصَّل تعالى المراد من الأخدود فقال ﴿النارِ ذاتِ الوقودِ﴾ أي النار العظيمة المتأججة ، ذات الحطب واللهب ، التي أضرمها الكفار في تلك الأخاديد لإِحراق المؤمنين قال أبو السعود : وهذا وصف لها بغاية العظم ، وارتفاع اللهب ، وكثرة ما فيها من الحطب[3] ، والقصدُ وصف النار بالشدة والهول .. ثم بالغ تعالى في وصف المجرمين فقال ﴿إذ هم عليها قُعودٌ * وهم على ما يفعلونَ بالمُؤمنينَ شُهُودٌ﴾ أي حين هم جلوس حول النار ، يتشفون بإِحراق المؤمنين فيها ، ويشهدون ذلك الفعل الشنيع[4] والغرضُ تخويف كفار قريش ، فقد كانوا يعذبون من أسلم من قومهم ، ليرجعوا عن الإِسلام ، فذكر الله تعالى قصة « أصحاب الأخدود » وعيداً للكفار ، وتسليةً للمؤمنين المعذبين ، ثم قال تعالى ﴿وما نقموا منهم

(١) اختلف المفسرون في تفسير ﴿الشاهد﴾ و ﴿المشهود﴾ اختلافاً كبيراً حتى ذكر بعضهم فيها ستة عشر قولاً ، فقيل : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، وقيل : الشاهد هو محمد والمشهود هو يوم القيامة ، وقيل : الشاهد هو جوارح الإِنسان والمشهود عليه هو ابن آدم .. الخ قال الصاوي : والأحسن أن يراد ما هو أعم ولذلك نكرهما ليعم كل شاهد ومشهود .

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٨٤ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٢ . (٤) خلاصة القصة « أن ملكاً ظالماً كافراً أسلم أهل بلده ، فأمر بالأخدود فشق في أفواه السكك ، وأضرم فيها النيران ، ثم أمر زبانيته وجنوده أن يأتوا بكل مؤمن ومؤمنة ويعرضوه على النار ، فمن لم يرجع عن دينه فليلقوه فيها ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌ لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبري فإنك على الحق » « انظر تفصيل القصة في صحيح مسلم » .

﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾

﴿إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ أي وما كان لهم ذنب ولا انتقموا منهم ، إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الغالب الذي لا يُضام من لاذَ بجنابه ، الحميد في جميع أقواله وأفعاله ،والغرضُ أن سبب البطش بهم ، وتحريقهم بالنار ، لم يكن إلا إيمانهم بالله الواحد الأحد ، وهذا ليس بذنب يستحقون به العقوبة ، ولكنه الطغيان والإجرام ﴿الذي لهُ مُلك السَّموات والأرض﴾ أي هذا الإله الجليل المالك لجميع الكائنات ، المستحق للمجد والثناء قال في البحر : وإنما ذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به ، وهي كونه تعالى ﴿عزيزاً﴾ أي غالباً قادراًيُخشىعقابه ﴿حميداً﴾ أي منعماً يجب له الحمد على نعمه ﴿له ملك السموات والأرض﴾ أي وكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له ، إنما ذكر ذلك تقريراً لأن ما نقموه منهم هو الحقُّ الذي لا ينقمه إلا مبطلٌ منهمك في الغيّ[1] ﴿واللّهُ على كلِّ شيءٍ شهيد﴾ أي هو تعالى مطَّلع على أعمال عباده ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ، وفيه وعدٌ للمؤمنين ، ووعيدٌ للمجرمين . . ثم شدَّد تعالى النكير على المجرمين الذين عذبوا المؤمنين فقال ﴿إن الذين فتنوا المؤمنينَ والمؤمنات﴾ أي عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ليفتنوهم عن دينهم ﴿ثم لم يتوبوا﴾ أي ثم لم يرجعوا عن كفرهم وطغيانهم ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذابُ الحريق﴾ أي فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم ، ولهم العذاب المحرق بإحراقهم المؤمنين . . ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح ﴿لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار﴾ أي لهم البساتين والحدائق الزاهرة ، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة قال الطبري : هي أنهار الخمر واللبن والعسل[2] ﴿ذلك الفوزُ الكبير﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم بغاية المطلوب ، الذي لا سعادة ولا فوز بعده . . ثم أخبر تعالى عن انتقامه الشديد من أعداء رسله وأوليائه فقال ﴿إنَّ بطْش ربك لشديد﴾ أي إن انتقام الله وأخذه الجبابرة والظلمة ، بالغ الغاية في الشدة قال أبو السعود : البطش الأخذ بعنف ، وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم ، وهو بطشه بالجبابرة والظلمة وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام[3] ﴿إنَّه هو يُبدىء ويُعيد﴾ أي هو جل وعلا الخالق القادر ، الذي يبدأ الخلق من العدم ، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ﴿وهو الغفورُ الودود﴾ أي وهو الساتر لذنوب عباده المؤمنين ، اللطيف المحسن إلى أوليائه ، المحبُّ لهم قال ابن عباس : يودُّ أولياءه كما يودُّ أحَدَكم أخاه بالبشرى والمحبة[4] ﴿ذو العرش﴾ أي صاحب العرش العظيم ، وإنما أضاف العرش

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٥١ . (٢) تفسير الطبري ٣٠/ ٨٨ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٣ . (٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٤ .

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾

إلى الله وخصَّه بالذكر ، لأن العرش أعظم المخلوقات ، وأوسعُ من السموات السبع ، وخلقُه بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه ﴿المجيد﴾ أي هو تعالى المجيدُ ، العالي على جميع الخلائق ، المتصف بجميع صفات الجلال والكمال ﴿فعَّال لما يريد﴾ أي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه قال القرطبي : أي لا يمتنع عليه شيء يريده [١] . روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له وهو في مرض الموت : هل نظر إليك الطبيبُ ؟ قال : نعم ، قالوا : فماذا قال لك ؟ قال قال لي : ﴿إني فعَّالٌ لما أريد﴾ [٢] ﴿هل أتاكَ حديث الجنود﴾ ؟ استفهامٌ للتشويق أي هل بلغك يا محمد خبر الجموع الكافرة ، الذين تجنَّدوا لحرب الرسل والأنبياء ؟ هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ،وما أنزل عليهم من النقمة والعذاب ؟ قال القرطبي : يؤنسه بذلك ويسليه ، ثم بيَّن تعالى من هم فقال ﴿فرعونَ وثمود﴾ أي هم فرعون وثمود ، أولي البأس والشدة ، فقد كانوا أشد بأساً ، وأقوى مراساً من قومك ، ومع ذلك فقد أخذهم الله تعالى بذنوبهم ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ أي لم يعتبر كفار قريش بما حلَّ بأولئك الكفرة المكذبين ، بل هم مستمرون في التكذيب فهم أشد منهم كفراً وطغياناً ﴿واللهُ من ورائهم محيط﴾ أي والله تعالى قادرٌ عليهم ، لا يفوتونه ولا يعجزونه ، لأنهم في قبضته في كل حينٍ وزمان ﴿بل هو قرآنٌ مجيد﴾ أي بل هذا الذي كذبوا به ، كتابٌ عظيم شريف ، متناهٍ في الشرف والمكانة ، قد سما على سائر الكتب السماوية ، في إعجازه ونظمه وصحة معانيه ﴿في لوحٍ محفوظ﴾ أي هو في اللوح المحفوظ الذي في السماء ، محفوظٍ من الزيادة والنقص ، والتحريف والتبديل .

البَلاغَة : تضمنت السورة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿يبدىء . . ويُعيد﴾ .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿وشاهد . . ومشهود﴾ .

٣ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ كأنه يقول : ليس لهم جريمة إلا إيمانهم بالله ، وهذا من أعظم المفاخر والمآثر .

٤ ـ المقابلة بين مصير المؤمنين ومصير المجرمين ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ الآية قابله قوله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات . .﴾ الخ .

٥ ـ أسلوب التشويق لاستماع القصة ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ ؟

(١) القرطبي ١٩/ ٢٩٥ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٢٥

٦ ـ صيغة المبالغة مثل ﴿فعالٌ لما يريد﴾ ﴿العزيز الحميد﴾ وأمثال ذلك .

٧ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قُتل أصحاب الأخدود * النَّار ذات الوقود . . ﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج »

* * *


(٨٦) سُورَةُ الطَّارِقِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سَبْعَ عَشْرَةَ

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة من السور المكية ، وهي تعالج بعض الأمور المتعلقة بالعقيدة الإسلامية ، ومحور السورة يدور حول الإيمان بالبعث والنشور ، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث ، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة ، التي تطلع ليلاً لتضيء للناس سُبلهم ، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، على أن كلَّ إنسان قد وُكل به من يحرسه ، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿والسماءِ والطارق * وما أدراك ما الطارقُ * النجمُ الثاقب * إن كلُّ نفسٍ لما عليها حافظ﴾ .

* ثم ساقت الأدلة والبراهين ، على قدرة ربِّ العالمين ، على إعادة الإنسان بعد فنائه ﴿فلينظرِ الإنسانُ ممَّ خلق * خُلقَ من ماءٍ دافق * يخرجُ من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر﴾ .

* ثم أخبرت عن كشف الأسرار ، وهتك الأستار في الآخرة ، حيث لا معين للإنسان ولا نصير ﴿يومَ تُبلى السرائر * فما لهُ من قوَّة ولا ناصر﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم ، معجزة محمد ﷺ الخالدة ، وحجته البالغة إلى الناس أجمعين ، وبيَّنت صدق هذا القرآن ، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصَّدع * إنه لقولٌ فصل * وما هو بالهزل * إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً * فمهِّل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

اللغة : ﴿الطارق﴾ مأخوذ من الطرق بمعنى الضرب بشدة ومنه المطرقة ، وكل ما جاء بليل يسمى طارقاً ﴿دافق﴾ مصبوب بقوة وشدة يقال : دفق الماء دفقاً إذا انصبَّ بدفع وشدة ﴿الترائب﴾ عظام الصدر جمع تريبة مثل فصيلة وفصائل قال امرؤ القيس :

« تَرائبُها مصقولةٌ كالسجنجل »[1]

﴿الرَّجع﴾ المطر سمي به لرجوعه إلى الأرض مراراً ﴿الصَّدع﴾ النبات الذي تنشق عنه الأرض ﴿رويداً﴾ قليلاً أو قريباً .

التفسير : ﴿والسَّماء والطَّارق﴾ أي أقسم بالسماء وبالكواكب النيرة ، التي تظهر ليلاً وتختفي نهاراً قال المفسرون : سُمي النجم طارقاً لأنه إنما يظهر بالليل ويختفي بالنهار ، وكلُّ ما يجيء ليلاً فهو طارق ﴿وما أدراك ما الطَّارق﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم أي وما الذي أعلمك يا محمد ما حقيقة هذا النجم ؟ ثم فسره بقوله ﴿النجمُ الثاقب﴾ أي النجم المضيء الذي يثقب الظلام بضيائه قال الصاوي : قد كثر منه تعالى في كتابه المجيد ذكرُ الشمس والقمر والنجوم ، لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ، ومغاربها عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات ، لأن الصَّنعة تدل على الصانع[1] ﴿إنْ كلُّ نفس لَّما عليها حافظ﴾ هذا جواب القسم أي ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خيرٍ وشر كقوله ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين﴾ قال ابن كثير : أي كلُّ نفسٍ عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات[2] . . ثم أمر تعالى بالنظر والتفكر في خلق الإنسان ، تنبيهاً على إمكان البعث والحشر فقال ﴿فلينظُر الإنسانُ مِمَّ خلق﴾ ؟ أي فلينظر الإنسان في أول نشأته نظرة تفكرٍ واعتبار ، من أي شيءٍ خلقه الله ؟ ﴿خُلق من ماءٍ دافق﴾ أي خلق من المنيِّ المتدفق ، الذي ينصب بقوةٍ وشدة ، يتدفق من الرجل والمرأة فيتكون منه الولد بإذن الله ﴿يخرج من بين الصُّلب والترائب﴾ أي يخرج هذا الماء من بين الصلب وعظم الصدر ، من الرجل والمرأة[3] ﴿إنَّه على رجعه لقادر﴾ أي إن الله تعالى الذي خلق الإنسان ابتداءً ، قادر على إعادته بعد موته قال ابن كثير : نبه تعالى الإنسان على

(١) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٩٧ (١) حاشية الصاوي ٤/ ٣٠٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٢٩ .

(٣) الصلب : فقار الظهر ويسمى سلسلة الظهر ، والترائب : عظام الصدر ، وكنى بالصلب عن الرجل ، وبالترائب عن المرأة .

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾

ضعف أصله الذي خلق منه ، وأرشده إلى الاعتراف بالمعاد ، لأن من قدر على البداءة ، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ﴿يوم تُبلى السَّرائر﴾ أي يوم تمتحن القلوب وتختبر ، ويُعرف ما بها من العقائد والنيات ، ويميز بين ما طاب منها وما خبث ﴿فما له من قوةٍ ولا ناصر﴾ أي فليس للإنسان في ذلك الوقت قوة تدفع عنه العذاب ، ولا ناصر ينصره ويجيره ، قال في التسهيل : لما كان دفع المكاره في الدنيا إما بقوة الإنسان ، أو بنصرة غيره له ، أخبره الله تعالى أنه يعدمها يوم القيامة[1] ، فلا قوة له في نفسه ، ولا أحد ينصره من الله . . ولما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد ، عاد فأقسم على صدق هذا الكتاب المعجز فقال ﴿والسَّماء ذات الرجع﴾ أي أقسم بالسماء ذات المطر ، الذي يرجع على العباد حيناً بعد حين قال ابن عباس : الرَّجع المطرُ ولولاه لهلك الناس وهلكت مواشيهم[2] ﴿والأرض ذات الصَّدع﴾ أي وأُقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق ، فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات والثمار[3] . . أقسم سبحانه وتعالى بالسماء التي تفيض علينا الماء ، وبالأرض التي تخرج لنا الثمار والنبات ، والسماء للخلق كالأب ، والأرض لهم كالأم ، ومن بينهما تتولد النعم العظيمة ، والخيرات العميمة ، التي بها بقاء الإنسان والحيوان ﴿إنَّه لقولٌ فصل﴾ أي إن هذا القرآن لقولٌ فاصل بين الحق والباطل ، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعه وإعجازه ﴿وما هو بالهزل﴾ أي ليس فيه شيءٌ من اللهو والباطل والعبث ، بل هو جدٌّ كله ، لأنه كلام أحكم الحاكمين ، فجديرٌ بقارئه أن يتعظ بآياته ، ويستنير بتوجيهاته وإرشاداته ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾ أي إن هؤلاء المشركين ـ كفار مكة ـ يعملون المكايد لإطفاء نور الله ، وإبطال شريعة محمد ﷺ ﴿وأكيد كيداً﴾ أي وأجازيهم على كيدهم بالإمهال ثم النكال ، حيث آخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر كقوله تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ قال أبو السعود : أي أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث استدرجهم من حيث لا يعلمون[4] ﴿فمهل الكافرين أمْهلهم رُويداً﴾ أي لا تستعجل في هلاكهم والانتقام منهم ، وأمهلهم قليلاً فسوف ترى ما أصنع بهم ، وهذا منتهى الوعيد والتهديد .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام للتفخيم والتعظيم ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ ؟

٢ ـ الطباق بين ﴿السماء والأرض﴾ وبين ﴿الفصل والهزل﴾ .

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٢٨ . (٣) تفسير الطبري ٣٠/ ٩٥ . (٤) تفسير أبي السعود ٨/ ٤٣٨ .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿يكيدون كيداً﴾ .

٤ ـ الإطناب بتكرار الفعل مبالغة في الوعيد ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ .

٥ ـ الكناية اللطيفة ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ كنَّى بالصلب عن الرجل ، وبالترائب عن المرأة ، وهذا من لطيف الكنايات .

٦ ـ السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب ورشاقته ونضارته مثل ﴿والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصَّدع﴾ ومثل ﴿إنه لقول فصل * وما هو بالهزل﴾وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الأعلى من السور المكية ، وهي تعالج باختصار المواضيع الآتية :

١ ـ الذاتِ العلية وبعض صفات الله جل وعلا ، والدلائل على القدرة والوحدانية .

٢ ـ الوحي والقرآن المنزَّل على خاتم الرسل ﷺ وتيسير حفظه عليه ﷺ .

٣ ـ الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحيَّة ، ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله جل وعلا ، الذي خلق فأبدع ، وصوَّر فأحسن ، وأخرج العشب ، والنبات ، رحمة بالعباد ﴿سبِّح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوَّى * والذي قدَّر فهدى . .﴾ الآيات .

* ثم تحدثت عن الوحي والقرآن ، وآنست الرسول ﷺ بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد ، وتيسير حفظه عليه ، بحيث لا ينْساه أبداً ﴿سنقرئكَ فلا تنسى * إلا ما شاء الله إنه يعلم الجَهر وما يخفى﴾

* ثم أمرت بالتذكير بهذا القرآن ، الذي يستفيدُ من نوره المؤمنون ، ويتعظ بهديه المتقون ، ﴿فذكّر إن نفعت الذكرى . سيذّكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى﴾ الآيات

* وختمت السورة ببيان فوز من طهَّر نفسه من الذنوب والآثام ، وزكاها بصالح الأعمال ﴿قد أفلح من تزكى*وذكر اسم ربه فصلى﴾ إلى نهاية السورة الكريمة .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

اللغـة : ﴿غثاء﴾ الغُثاء : ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات ﴿أحوى﴾ أسود مأخوذ من الحُوة وهي السواد أو السمرة ﴿يصلى﴾ يدخل ويقاسي حرّها يقال : أصليتُه ناراً وجعلته يذوق حرها .

التفسير : ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أي نزِّه يا محمد ربك العلي الكبير عن صفات النقص ، وعما يقوله الظالمون ، مما لا يليق به سبحانه وتعالى من النقائص والقبائح ، وفي الحديث أنه ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : « سبحان ربي الأعلى »[1] . ثم ذكر من أوصافه الجليلة ، ومظاهر قدرته الباهرة ، ودلائل وحدانيته وكماله فقال ﴿الذي خلق فسوى﴾ أي خلق المخلوقات جميعها ، فأتقن خلقها ، وأبدع صنعها ، في أجمل الأشكال ، وأحسن الهيئات قال في البحر : أي خلق كل شيء فسواه ، بحيث لم يأت متفاوتاً ، بل متناسباً على إحكام وإتقان ، للدلالة على أنه صادر من عالم حكيم[2] ﴿والذي قدر فهدى﴾ أي قدَّر في كل شيء خواصه ومزاياه بما تجلُّ عنه العقول والأفهام ، وهدى الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيها ، وهدى الأنعام إلى مراعيها ، ولو تأملت ما في النباتات من الخواص ، وما في المعادن من المزايا والمنافع ، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات ، واستخدام المعادن في صنع المدافع والطائرات ، لعلمتَ حكمةَ العلي القدير ، الذي لولا تقديره وهدايته لكنا نهيم في دياجير الظلام كسائر الأنعام قال المفسرون : إنما حذف المفعول لإفادة العموم أي قدَّر لكل مخلوق وحيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعرَّفه وجه الانتفاع به[3] ﴿والذي أخرجَ المَرعى﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب ، من الحشائش والأعشاب ﴿فجعله غثاء أحوى﴾ أي فصيَّره بعد الخضرة أسود بالياً ، بعد أن كان ناضراً زاهياً ، ولا يخفى ما في المرعى من المنفعة بعد صيرورته هشيماً يابساً ، فإنه يكون طعاماً جيداً لكثير من

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس . (٢) البحر المحيط ٤٥٨/٨ (٣) انظر روح المعاني ١٠٤/٣٠ والتسهيل لعلوم التنزيل ١٩٣/٤

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾

الحيوانات ، فسبحان من أحكم كل شيء ﴿وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ !! وبعد أن ذكر دلائل قدرته ووحدانيته ، ذكر فضله وإنعامه على رسوله فقال ﴿سنُقرئُك فلا تنسى﴾ أي سنقرئك يا محمد هذا القرآن العظيم فتحفظه في صدرك ولا تنساه ﴿إلا ما شاء الله﴾ أي لكن ما أراد الله نسخه فإنك تنساه .. وفي هذه الآية معجزة له عليه الصلاة والسلام ، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام ، وكونه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسة ولا تكرار ولا ينساه أبداً ، من أعظم البراهين على صدق نبوته ﷺ قال ابن كثير : هذا إخبار من الله تعالى ووعدٌ لرسوله ﷺ بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها[1] ﴿إنه يعلمُ الجهرَ وما يخفى﴾ أي هو تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخفونه من الأقوال والأفعال ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿ونُيسِّرك لليُسرى﴾ أي ونوفقك للشريعة السمحة البالغة اليسر ، التي هي أيسر وأسهل الشرائع السماوية ، وهي شريعة الإسلام ﴿فذكّر إن نفعت الذكرى﴾ أي فذكر يا محمد بهذا القرآن حيث تنفع الموعظة والتذكرة كقوله ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ قال ابن كثير : ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال علي رضي الله عنه « ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان فتنة لبعضهم » وقال : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله » ؟[2] ﴿سيذكر من يخشى﴾ أي سينتفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى ﴿ويتجنبها الأشقى﴾ أي ويرفضها ويبتعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ في الشقاوة ﴿الذي يصلى النار الكبرى﴾ أي الذي يدخل نار جهنم المستعرة ، العظيمة الفظيعة قال الحسن : النار الكبرى نارُ الآخرة ، والصغرى نارُ الدنيا[3] ﴿ثم لا يموتُ فيها ولا يحيا﴾ أي لا يموت فيستريح ، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة ، بل هو دائم في العذاب والشقاء[4] ﴿قد أفلحَ من تزكى﴾ أي قد فاز من طهَّر نفسه بالإيمان ، وأخلص عمله للرحمن ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ أي وذكر عظمة ربه وجلاله ، فصلى خشوعاً وامتثالاً لأمره ﴿بل تؤثرون الحياة الدُنيا﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية ، فتشتغلون لها وتنسون الآخرة ﴿والآخرة خيرٌ وأبقى﴾ أي والحال أن الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى ، لأن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والباقي خيرٌ من الفاني ، فكيف يؤثر عاقلٌ ما يفنى على ما يبقى ؟ وكيف يهتم بدار الغرور ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود ؟ قرأ ابن مسعود هذه

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٣٠ (٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٥٩ (٤) قال الطبري : العرب إذا وصفت الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا : لا هو حي ولا هو ميت فخاطبهم الله بما يعرفون الطبري ٣/ ٥٩

إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

الآية فقال لأصحابه : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ قالوا : لا ، قال : لأن الدنيا أحضرت وعجلت لنا بطعامها ، وشرابها ، ونسائها ، ولذاتها ، وبهجتها ، وإن الآخرة غُيبتْ وزُويت عنا ، فأحببنا العاجل ، وتركنا الآجل[1] ﴿إن هذا لفي الصُّحفِ الأولى * صحفِ إبراهيم وموسى﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة ، مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، فهي مما توافقت فيه الشرائع ، وسطرته الكتب السماوية ، كما سطره هذا الكتاب المجيد .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق ﴿لا يموت . . ولا يحيا﴾ وكذلك ﴿الجهر . . وما يخفى﴾ ،

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿نيسرك لليسرى﴾ و ﴿ذكِّر . . والذكرى﴾ .

٣ ـ المقابلة بين ﴿سيذكر من يخشى﴾ وبين ﴿ويتجنبها الأشقى﴾ .

٤ ـ حذف المفعول ليفيد العموم في قوله ﴿خلق فسوى﴾ وفي ﴿قدر فهدى﴾ لأن المراد خلق كل شيء فسواه ، وقدر كل شيء فهداه .

٥ ـ السجع غير المتكلف وهو كثير في القرآن مثل ﴿أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، سنقرئك فلا تنسى﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تَنْبِيه : صحف موسى غير التوراة ، وقد ورد أنه أعطي عشر صحف وكانت كلها عبراً ، قال أبو ذر : سألت رسول الله ﷺ عن صحف موسى ما كانت ؟ قال : كانت عبراً كلها ﴿عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح ! عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك !عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن إليها ! عجبت لمن أيقن بالقَدَر ثم ينصب ! عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل !!﴾

﴿تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى﴾

* * *

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٣٦



بين يدي السورة

* سورة الغاشية مكية ، وقد تناولت موضوعين أساسيين وهما :

* ١ ـ القيامة وأحوالها وأهوالها ، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء ، وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء .

* ٢ ـ الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وقدرته الباهرة ، في خلق الإبل العجيبة ، والسماء البديعة ، والجبال المرتفعة ، والأرض الممتدة الواسعة ، وكلها شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه . وختمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعاً إلى الله سبحانه للحساب والجزاء .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾

اللغة : ﴿الغاشية﴾ القيامة تغشى الناس بأهوالها ﴿خاشعة﴾ ذليلة خاضعة ﴿ناصبة﴾ من النصب وهو التعب ﴿ضريع﴾ شيء في النار كالشوك مرٌّ منتنٌ ﴿ناعمة﴾ ذات حسن وبهجة ونضارة ﴿نمارق﴾ وسائد ومرافق يُتكأ عليها جمع نمرقة قال زهير :

كهولاً وشباناً حساناً وجوهُهم ... على سرُر مصفوفةٍ ونمارق[1]

﴿زرابيُّ﴾ بسط فاخرة جمع زربية وقال الفراء : هي الطنافس التي لها خملٌ رقيق ، ﴿مبثوثة﴾ مفرَّقة في المجالس ﴿إيابهم﴾ رجوعهم .

التفسير : ﴿هل أتاك حديثُ الغاشية﴾ الاستفهام للتشويق الى استماع الخبر، وللتنبيه والتفخيم لشأنها أي هل جاءك يا محمد خبرُ الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتعمُّهم بشدائدها وأهوالها، وهي

(١) روح المعاني ٣٠/ ١١٥

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾

القيامة ؟ قال المفسرون : سميت غاشية لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وشدائدها ،وتعمُّهم بما فيها من المكاره والكوارث العظيمة ﴿وجوهٌ يومئذٍ خاشعة﴾ أي وجوهٌ في ذلك اليوم ذليلة خاضعةٌ مهينة ﴿عاملةٌ ناصبةٌ﴾ أي دائبة العمل فيما يُتعبها ويشقيها في النار قال المفسرون : هذه الآية في الكفار ، يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال ، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوحل ، والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها كما قال تعالى ﴿إذِ الأغلال في أعناقهم والسلاسل * يُسْحبون في الحميم ثم في النار يُسجرون﴾ وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله ، وانهماكهم في اللذات والشهوات ﴿تَصلى ناراً حاميةً﴾ أي تدخل ناراً مسعَّرة شديدة الحر قال ابن عباس : قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله[1] ﴿تُسقى من عينٍ آنيةٍ﴾ أي تسقى من عين متناهية الحرارة ، وصل حرها وغليانها درجة النهاية ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ أي ليس لأهل النار طعام إلا الضريع وهو نبتٌ ذو شوك تسميه قريش « الشبرق » وهو أخبث طعامٍ وأبشعه وهو سم قاتل قال قتادة : هو شر الطعام وأبشعه وأخبثه[2] . . ذكر تعالى هنا أن طعامهم الضريع ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وقال في الحاقّة ﴿ولا طعامٌ إلا من غِسلين﴾ ولا تنافي بينهما ، لأن العقاب ألوان ، والمعذبون أنواع ، فمنهم من يكون طعامه الزقوم ، ومنهم من يكون طعامه الضريع ، ومنهم من يكون طعامه الغسلين ، وهكذا يتنوع العذاب ﴿لا يُسمنُ ولا يُغني من جوع﴾ أي لا يفيد القوة والسمن في البدن ، ولا يدفع الجوع عن آكله قال أبو السعود : أي ليس من شأنه الإسمانُ والإشباع ، كما هو شأن طعام الدنيا ، وقد روي أنه يُسلَّط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع ، فإذا أكلوه يُسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم ، فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم[3] ﴿وسقوا ماءً حميماً فقطَّع أمعاءهم﴾ . . ولما ذكر حال الأشقياء أهل النار ، أتبعه بذكر حال السعداء أهل الجنة فقال ﴿وُجوهٌ يومئذٍ ناعمةٌ﴾ أي وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ذات بهجةٍ وحسن ، وإشراق ونضارة كقوله تعالى ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ ﴿لسعيها راضيةٌ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا وطاعتها لله راضية مطمئنة ، لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين ﴿في جنَّة عاليةٍ﴾ أي في حدائق وبساتين مرتفعة مكاناً وقدراً ، وهم في الغرفات آمنون ﴿لا تسمع فيها لاغيةً﴾ أي لا تسمع في الجنة شتماً ، أوسباً ، أو فحشاً قال ابن عباس : لا تسمع أذى ولا باطلاً[4] ﴿فيها عينٌ جاريةٌ﴾ أي فيها عيونٌ تجري بالماء السلسبيل لا تنقطع أبداً قال الزمخشري : التنوين في ﴿عينٌ﴾ للتكثير أي عيونٌ كثيرة تجري مياهها[5] ﴿فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ﴾ أي في الجنة أسرة مرتفعة ، مكللة بالزبرجد والياقوت ، عليها الحور العين ، فإذا

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٣٧ (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٣٢ (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٩
(٤) تفسير الطبري ٣٠/ ١٠٤ (٥) روح المعاني ٣٠/ ١١٥

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ

أراد وليُّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له[١] ﴿وأكوابٌ موضوعةٌ﴾ أي وأقداح موضوعة على حافات العيون ، معدة لشرابهم لا تحتاج إلى من يملأها ﴿ونمارقُ مصفوفةٌ﴾ أي ووسائد - مخدَّات - قد صُفَّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها ﴿وَزَرَابيُّ مبثوثةٌ﴾ أي وفيها طنافس فاخرة لها خمل رقيق مبسوطة في أنحاء الجنة . . ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقتْ﴾ أي أفلا ينظر هؤلاء الناس نظر تفكر واعتبار ، إلى الإبل - الجمال - كيف خلقها الله خلقاً عجيباً بديعاً يدل على قدرة خالقها ؟ ! قال في التسهيل : في الآية حضٌ على النظر في خلقتها ، لما فيها من العجائب في قوتها ، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف ، وصبرها على العطش ، وكثرة المنافع التي فيها ، من الركوب والحمل عليها ، وأكل لحومها ، وشرب ألبانها وغير ذلك[٢] ﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾ أي وإلى السماء البديعة المحكمة ، كيف رفع الله بناءها ، وأعلى سمكها بلا عمد ولا دعائم ؟ ﴿وإلى الجبال كيف نُصبت﴾ أي إلى الجبال الشاهقة كيف نصبت على الأرض نصباً ثابتاً راسخاً لا يتزلزل ؟ ! ﴿وإلى الأرض كيف سُطحت﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها ، كيف بسطت ومُهدت حتى صارت شاسعة واسعة يستقرون عليها ، ويزرعون فيها أنواع المزروعات ؟ ! قال الألوسي : ولا ينافي هذا ، القول بأنها كرة أو قريبة من الكرة لمكان عظمها[٣] والحكمةُ في تخصيص هذه الأشياء بالذكر ، أن القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيراً في الأودية والبراري منفردين عن الناس ، والإنسان إذا ابتعد عن المدينة أقبل على التفكر ، فأول ما يقع بصره على البعير الذي يركبه فيرى منظراً عجيباً ، وإن نظر فوق لم ير غير السماء ، وإن نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال ، وإن نظر تحت لم ير غير الأرض ، فلذلك ذكر هذه الأشياء قال ابن كثير : نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكبٌ عليه ، والسماء التي فوق رأسه ، والجبَل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته ، على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم ، الخالق المالك المتصرف ، الذي لا يستحق العبادة سواه[٤] . . ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد ولم يعتبر بذلك الكفار ، أمر نبيه ﷺ بوعظهم وتذكيرهم فقال

(١) مختصر ابن كثير ٣/٦٣٣ . (٢) التسهيل ٤/١٩٦ إنما خص تعالى الإبل بالذكر ، لأنها أفضل دواب العرب ، وأكثرها نفعاً ولهذا تسمى «سفينة الصحراء» فانظر إلى خلقها العجيب ، فإنها في غاية القوة والشدة ، وهي مع ذلك تنقاد مع الطفل الضعيف ، وهي تجلس لتضع عليها حمولتها عن قرب ، ثم تقوم بما تحمله بما ينوء عنه العصبة أولو القوة ، ثم صبرها على الجوع والعطش الأيام المعدودة ، ثم بلوغها المسافات الطويلة ، ورعيها بكل نبات في البراري ، وغير ذلك من عجائب الخلق والتكوين . فسبحان الحكيم العليم !

(٣) اثبت علماؤ نا ان الارض كروية كالامام الفخر الرازي ، وأبي السعود ، والألوسي ، كما نقلنا بعض ذلك في سورة لقمان ، وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فانما هي بالنسبة لعظمها وسعتها أو بالنسبة للناظرين ، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية .

(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٣٤

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

﴿فذكِّـر إنما أنـت مُذكرٌ﴾أي فعظهم يا محمد وخوفهم ،ولا يهمنَّـك أنهم لا ينظرون ولا يتفكرون ، فإنما أنت واعظ ومرشد ﴿لست عليهم بمسيطـر﴾ أي لست بمتسلط عليهم ولا قاهر لهم حتى تجبرهم على الإيمان ﴿إلا من تولـى وكفـر﴾ أي لكن من أعرض عن الوعظ والتذكير ، وكفر بالله العلي القدير ﴿فيعذبُـه الله العـذاب الأكبـر﴾ أي فيعذبه الله بنار جهنـم الدائم عذابها قال القرطبي : وإنما قال ﴿الأكبر﴾ لأنهم عُذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر[١] ﴿إن إلينـا إيابهـم﴾ أي إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت ﴿ثم إن علينـا حسابهـم﴾ أي ثم إن علينا وحدنا حسابهـم وجزاءهم .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيـان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ أسلوب التشويق ﴿هل أتاك حديـث الغاشيـة﴾ ؟

٢ ـ المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿وجـوه يومئذ خاشعة﴾ المراد أصحابها .

٣ ـ الطباق في الحرف بين ﴿إلينا إيابهـم . . وعلينا حسابهـم﴾ .

٤ ـ جناس الاشتقاق ﴿فذكـر . . مذكـر﴾ وبين ﴿يعذبه . . والعذاب﴾

٥ ـ المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار ﴿وجوه يومئذٍ ناعمةٌ * لسعيها راضية﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وجوه يومئذ خاشعـة * عاملةٌ ناصبة﴾ .

٦ ـ السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿لسعيهـا راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية﴾ . . الخ

تـنبيـه : روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم الشام ، أتاه راهب شيخ كبير عليه سواد ، فلما رآه عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيـك يا أمير المؤمنين إنه نصراني ؟ فقال : ذكرتُ قول الله عـز وجل ﴿عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية﴾ فبكيتُ رحمةً عليه[٢] .

﴿تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية﴾

* * *

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٧ (٢) انظر مختصر ابن كثير ٣/ ٦٣٢



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الفجر مكية ، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسية وهي :

* ١ ـ ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسل الله ، كقوم عاد ، وثمود ، وقوم فرعون ، وبيان ما حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب طغيانهم ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد . .﴾ الآيات .

* ٢ ـ بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر ، والغنى والفقر ، وطبيعة الإِنسان في حبه الشديد للمال ﴿فأما الإِنسان إذا ما ابتلاه ربه . .﴾ الآيات .

* ٣ ـ الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء ، وبيان مآل النفس الشريرة ، والنفس الكريمة الخيِّرة ﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً * وجاء ربك والملك صفاً صفاً * وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإِنسان وأنى له الذكرى﴾ إلى نهاية السورة الكريمة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿والفجر وليالٍ عشر . . . إلى . . . فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾
من آية (١) إلى آية (٣٠) نهاية السورة الكريمة .

اللغَة : ﴿حجر﴾ عقل ولب قال الفراء : العرب تقول إنه لـذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها ، وأصل الحجر المنع ، وسمي العقل حجراً لأنه يمنع عن السفه قال الشاعر .

وكيف يُرجَّى أن يتوب وإنما ... يُرجَّى من الفتيان من كان ذا حِجْرٍ[1]

﴿جابوا﴾ قطعوا ومنه قولهم : فلان يجوب البلاد أي يقطعها ﴿التراث﴾ الميراث ﴿لمَّاً﴾ شديداً وأصله الجمع ومنه قولهم : لمَّ اللهُ شعثه ﴿جمّاً﴾ كثيراً عظيماً كبيراً قال الشاعر :

إن تغفر اللَّهمَّ تغفر جماً ... وأيُّ عبدٍ لك ما ألَمَّا

(١) القرطبي ١٩/٤٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾

التفسير : ﴿والفجر * وليالٍ عشر﴾ هذا قسمٌ أي أُقسم بضوء الصبح عند مطاردته ظلمة الليل ، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة ، لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج[1] قال المفسرون : أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الرب ، وبالليالي الفاضلة المباركة وهي عشر ذي الحجة ، لأنها أفضل أيام السنة ، كما ثبت في صحيح البخاري (ما من أيام العمل الصالح أحبُّ إلى الله فيهن من هذه الأيام ـ يعني عشر ذي الحجة ـ قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهادُ في سبيل الله ، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء)﴿والشَّفع والوتر﴾ أي وأُقسم بالزوج والفرد من كل شيء فكأنه تعالى أقسم بكل شيء ، لأن الأشياء إما زوجٌ وإما فردٌ ، أو هو قسمٌ بالخلق والخالق ، فإن الله تعالى واحد « وتر » والمخلوقات ذكرٌ وأنثى « شفع »[2] ﴿والليل إذا يسر﴾ أي وأُقسم بالليل إذا يمضي بحركة الكون العجيبة ، والتقييد بسريانه لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ، ووفور النعمة ﴿هل في ذلك قسمٌ لذي حِجْر﴾ أي هل فيما ذكر من الأشياء قسمٌ مقنع لذي لب وعقل ؟ ! والاستفهام تقريريٌ لفخامة شأن الأمور المقسم بها ، كأنه يقول : إن هذا لقسمٌ عظيمٌ عند ذوي العقول والألباب ، فمن كان ذا لُب وعقل علم أن ما أقسم الله عز وجل به من هذه الأشياء فيها عجائب ، ودلائل تدل على توحيده وربوبيته ، فهو حقيق بأن يُقسم به لدلالته على الإله الخالق العظيم قال القرطبي : قد يُقسم الله بأسمائه وصفاته لعلمه ، ويُقسم بأفعاله لقدرته كما قال تعالى ﴿وما خلق الذكرَ والأنثى﴾ ويُقسم بمفعولاته لعجائب صنعه كما قال ﴿والشمس وضحاها﴾ ﴿والسماء والطارق﴾ ﴿والفجر وليال عشر﴾[3] وجواب القسم محذوف تقديره : ورب هذه الأشياء ليعذبنَّ الكفار[4] ، ويدل عليه قوله ﴿ألم تر كيف فعل ربُّك بعاد﴾ ؟ أي ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك ، ماذا فعل الله بعاد قوم هود ؟ ﴿إرمَ ذات العماد﴾ أي عاداً الأولى أهل أرم ذات البناء الرفيع ، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عُمان وحضرموت ﴿التي لم يخلق مثلُها في البلاد﴾ أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم ، وشدتهم ، وضخامة أجسامهم ! والمقصود من ذلك تخويف أهل مكة بما صنع تعالى

(١) هذا قول الجمهور وهو مروي عن ابن عباس ، وقيل هي العشر الأخير من رمضان لأن فيها ليلة القدر ، وهي رواية أيضاً عن ابن عباس ، والأول أرجح .

(٢) هذا القول روي عن مجاهد وابن عباس ، وروي عن ابن عباس أيضاً أن الشفع يوم النحر لكونه العاشر ، والوتر يوم عرفة لكونه التاسع ، وذكرت أقوال اخرى كثيرة غير هذه . (٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٤١ . (٤) انظر روح المعاني للألوسي ٣٠/ ١٢٢ .

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾

بعاد ، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعماراً ، وأشدَّ قوة من كفار مكة ! ؟ قال ابن كثير : وهؤلاء «عاد الأولى» وهم الذين بعث الله فيهم رسوله «هوداً» عليه السلام فكذبوه وخالفوه ، وكانوا عتاة متمردين جبارين ، خارجين عن طاعة الله مكذبين لرسله ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمَّرهم ، وجعلهم أحاديث وعبراً[1] ﴿وثمود الذين جابوا الصَّخر بالواد﴾ أي وكذلك ثمود الذين قطعوا صخر الجبال ، ونحتوا بيوتاً بوادي القُرى ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ وكانت مساكنهم في الحجر بين الحجاز وتبوك قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور والرخام قبيلة ثمود وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور ، وينقبون الجبال فيجعلونها بيوتاً لأنفسهم ، وقد بنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة بوادي القرى[2] ﴿وفرعون ذي الأوْتاد﴾ أي وكذلك فرعون الطاغية الجبار ، ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشد ملكه قال أبو السعود : وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم أو لتعذيبه بالأوتاد[3] ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ أي أولئك المتجبرين «عاداً ، وثمود ، وفرعون» الذين تمردوا وعتوا عن أمر الله ، وجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ أي فأكثروا في البلاد الظلم والجور والقتل ، وسائر المعاصي والآثام ﴿فصبَّ عليهم ربُّك سوط عذاب﴾ أي فأنزل عليهم ربك ألواناً شديدة من العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم قال المفسرون : استعمل لفظ الصبّ لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب ، كما قال القائل «صببنا عليهم ظالمين سياطنا» والمراد أنه تعالى أنزل على كل طائفة نوعاً من العذاب ، فأُهلكت عادٌ بالريح ، وثمود بالصيحة ، وفرعون وجنوده بالغرق كما قال تعالى ﴿فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا﴾[4] ﴿إنَّ ربَّك لبالمرصاد﴾ أي إن ربك يا محمد ليرقب عمل الناس ، ويحصيه عليهم ، ويجازيهم به قال في التسهيل : المرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد ، والمراد أنه تعالى رقيب على كل إنسان ، وأنه لا يفوته أحد من الجبابرة والكفار ، وفي ذلك تهديدٌ لكفار قريش[5] . . ولما ذكر تعالى ما حلَّ بالطغاة المتجبرين ، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر ، الذي يبطر عند الرخاء ، ويقنط عند الضراء فقال ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه﴾ أي إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿فأكرمه ونعَّمه﴾ أي فأكرمه بالغنى واليسار ، وجعله منعماً في الدنيا بالبنين والجاه والسلطان ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ أي فيقول ربي أحسن اليَّ بما أعطاني من النعم التي أستحقها ، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر ؟ ﴿وأمَّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه﴾ أي وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر وتضييق الرزق

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٣٦ . (٢) انظر القرطبي ١٩/ ٤٨ . والبحر المحيط ٨/ ٤٧٠ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٢ .
(٤) سورة العنكبوت آية ٤٠ وانظر حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣١٧ . (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٧ .

فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ

﴿فيقول ربي أهانن﴾ أي فيقول غافلاً عن الحكمة : إن ربي أهانني بتضييقه الرزق عليَّ قال القرطبي : وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث ، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظّ في الدنيا وقلّته ، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدي إلى حظ الآخرة ، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمده وشكره[١] ، وإنما أنكر تعالى على الإنسان قوله ﴿ربي أكرمن﴾ وقوله ﴿ربي أهانن﴾ لأنه إنما قال ذلك على وجه الفخر والكبر ، لا على وجه الشكر ، وقال : أهانن على وجه التشكي من الله وقلة الصبر ، وكان الواجب عليه أن يشكر على الخير ، ويصبر على الشر ، ولهذا ردعه وزجره بقوله ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾ أي ليس الإكرام بالغنى ، والإهانة بالفقر كما تظنون ، بل الإكرام والإهانة بطاعة الله ومعصيته ولكنكم لا تعلمون ، ثم قال ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ أي بل أنتم تفعلون ما هو شرٌّ من ذلك ، وهو أنكم لا تكرمون اليتيم مع إكرام الله لكم بكثرة المال ! ! ﴿ولا تحاضُّون على طعام المسكين﴾ أي ولا يحض بعضكم بعضاً ولا يحثه على إطعام المحتاج وعون المسكين ﴿وتأكلون التُّراث أكلاً لَمّاً﴾ أي وتأكلون الميراث أكلاً شديداً ، لا تسألون أمن حلالٍ هو أم من حرام ؟ قال في التسهيل : هو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره ، لأن العرب كانوا لا يُعطون من الميراث أنثى ولا صغيراً ، بل ينفرد به الرجال[٢] ﴿وتحبون المال حُباً جمّاً﴾ أي وتحبون المال حباً كثيراً مع الحرص والشره ، وهذا ذمٌّ لهم لتكالبهم على المال ، وبخلهم بإنفاقه ﴿كلاَّ إذا دُكت الأرض دكاً دكاً﴾ ﴿كلاَّ﴾ للردع أي ارتدعوا أيها الغافلون وانزجروا عن ذلك ، فأمامكم أهوال عظيمة في ذلك اليوم العصيب ، وذلك حين تزلزل الأرض وتحرك تحريكاً متتابعاً قال الجلال : أي زلزلت حتى ينهدم كل بناءٍ عليها وينعدم[٣] ﴿وجاء ربك والملكُ صفاً صفّاً﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد ، وجاءت الملائكة صفوفاً متتابعة صفاً بعد صف قال في التسهيل : قال المنذر بن سعيد : معناه ظهوره للخلق هنالك ، وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييفٍ ولا تمثيل[٤] وقال ابن كثير : قام الخلائق من قبورهم لربهم ، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم محمد ﷺ ، فيجيء الربُّ تبارك وتعالى لفصل القضاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً[٥] ﴿وجيء يومئذٍ بجهنَّم﴾ أي وأحضرت جهنم ليراها المجرمون كقوله ﴿وبُرزت الجحيم لمن يرى﴾ وفي الحديث (يُؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها)[٦] ﴿يومئذٍ يتذكر الإنسانُ﴾ أي في

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/٥١ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٩٨ . (٣) تفسير الجلالين ٤/٣١٨ .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٩٨ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/٦٣٨ . (٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً .

﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

ذلك اليوم الرهيب ، والموقف العصيب ، يتذكر الإنسان عمله ، ويندم على تفريطه وعصيانه ، ويريد أن يقلع ويتوب ﴿وأنَّى لهُ الذكرى﴾ أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها ؟ ! ﴿يقول يا ليتني قدَّمتُ لحياتي﴾ أي يقول نادماً متحسراً : يا ليتني قدمت عملاً صالحاً ينفعني في آخرتي ، لحياتي الباقية قال تعالى ﴿فيومئذٍ لا يُعذِّب عذابه أحد﴾ أي ففي ذلك اليوم ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ﴿ولا يوثق وثاقهُ أحد﴾ أي ولا يقيد أحدٌ بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله للكافر الفاجر ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق ، فأما النفس الزكية المطمئنة فيقال لها ﴿يا أيتُها النَّفس المطمئنة﴾ أي يا أيتها النفس الطاهرة الزكية ، المطمئنة بوعد الله التي لا يلحقها اليوم خوفٌ ولا فزع ﴿ارجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك وجنته ، راضيةً بما أعطاك الله من النعم ، مرضيةً عنده بما قدمت من عمل قال المفسرون : هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت ، فيقال للمؤمن عند احتضاره تلك المقالة ﴿فادخلي في عبادي﴾ أي فادخلي في زمرة عبادي الصالحين ﴿وادخلي جنتي﴾ أي وادخلي جنتي دار الأبرار الصالحين .

البَلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام التقريري ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ ؟

٢ ـ الطباق بين ﴿الشفع . . والوتر﴾ .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿لا يعذب عذابه﴾ ﴿ولا يوثق وثاقه﴾ ﴿يتذكر . . الذكرى﴾ .

٤ ـ المقابلة ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه﴾ وبين ﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه . .﴾ الآية فقد قابل بين ﴿أكرمن وأهانن﴾ وبين توسعة الرزق .

٥ ـ الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ شبه العذاب الشديد الذي نزل عليهم بسياطٍ لاذعة تكوي جسد المعذَّب واستعمل الصبَّ للإنزال .

٦ ـ الالتفات ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾ فيه التفات من ضمير الغائب الى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب ، والأصل ﴿بل لا يكرمون﴾ .

٧ ـ الإضافة للتشريف ﴿فادخلي في عبادي﴾ .

٨ ـ السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر﴾ ومثل ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد﴾ الآيات .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفجر »

***



بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السورة المكية ، من تثبيت العقيدة والإيمان ، والتركيز على الإيمان بالحساب والجزاء ، والتمييز بين الأبرار والفجار .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام ، الذي هو سكنُ النبي عليه الصلاة والسلام ، تعظيماً لشأنه ، وتكريماً لمقامه الرفيع عند ربه ، ولفتاً لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين من أكبر الكبائر عند الله تعالى .

* ثم تحدثت عن بعض كفار مكة ، الذين اغتروا بقوتهم ، فعاندوا الحقَّ ، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة ، ظناً منهم أن إنفاق الأموال يدفع عنهم عذاب الله ، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع .

* ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها ، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة من مصاعب ومتاعب وعقباتٍ لا يستطيع أن يقطعها ويجتازها إلا بالإيمان والعمل الصالح .

* وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العصيب ، وبينت مآل السعداء ، ومآل الأشقياء ، في دار الجزاء .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لا أقسمُ بهذا البلد * وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد . . . إلى . . . عليهم نارٌ مؤصدة﴾ من آية (١) إلى آية (٢٠) نهاية السورة .

اللغــة : ﴿كبد﴾ الكبدُ : الشدة والمشقة ، وأصله من كبد الرجل كبداً إذا وجعته كبده ثم استعمل في كل تعب ومشقة ، ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد ﴿اقتحم﴾ الاقتحامُ : الدخول بسرعة وشدة يقال : اقتحم الأمر ، واقتحم الحصن إذا رمى نفسه فيه بدون روية ﴿العقبة﴾ الطريق الوعر في الجبل ﴿فك﴾ الفكُّ تخليص الشيء من الشيء يقال : فككت الحبل ، وفككت الأسير أي خلصته من الأسر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾

﴿مسغَبة﴾ مجاعة يقال : سغبَ الرجل إذا جاع وقال الراغب : هو الجوع مع التعب[1] ﴿متربة﴾ افتقار يقال : تربَ الرجل إذا افتقر ولصق بالتراب ، وأترب إذا استغنى وكذلك أثرى[2] ﴿مؤ صدة﴾ مطبقة من أوصد الباب إذا أغلقه وأطبقه

التفسِير : ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾هذا قسمٌ ، أقسم سبحانه بالبلد الحرام « مكة » التي شرَّفها الله تعالى بالبيت العتيق ـ قبلة أهل الشرق والغرب ـ وجعلها مهبط الرحمات ، وإليها تجبى ثمرات كل شيء ، وجعلها حرماً آمناً ، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض[3] ، فلما استجمعت تلك المزايا والفضائل أقسم الله تعالى بها قال في التسهيل : أراد بالبلد « مكة » باتفاق ، وأقسم بها تشريفاً لها[4] ﴿وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد﴾ أي وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيم بمكة بلد الله الأمين قال البيضاوي أقسم بالبلد الحرام وقيَّده بحلوله عليه السلام فيه ـ أي إقامته فيه ـ إظهاراً لمزيد فضله ، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله[5] ﴿ووالدٍ وما ولد﴾ أي وأقسم بآدم وذريته الصالحين قال مجاهد : الوالد آدم عليه السلام ﴿وما ولد﴾ جميع ذريته قال ابن كثير : وما ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي ، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن ، أقسم بعده بالساكن وهو « آدم» أبو البشر وولده[6] وقال الخازن : أقسم الله تعالى بمكة لشرفها وحرمتها ، وبآدم وبالأنبياء والصالحين من ذريته ، لأن الكافر ـ وإن كان من ذريته ـ لا حرمة له حتى يقسم به[7] ﴿لقد خلقنا الإنسان في كَبَدٍ﴾ هذا هو المقسم عليه أي لقد خلقنا الإنسان في تعب ومشقة ، فإنه لا يزال يقاسي أنواع الشدائد ، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه قال ابن عباس : ﴿في كبَد﴾ أي في مشقة وشدة ، من حمله ، وولادته ، ورضاعه ، وفطامه ، ومعاشه ، وحياته ، وموته[8] ، وأصل الكبد : الشدة ، وقيل : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم ، وهو مع ذلك أضعف الخلق[9] قال أبو السعود : والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار مكة[10] . . ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان الجاحد بقدرة الله ، والمكذب للبعث والنشور فقال ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ أي أيظن هذا الشقي الفاجر ، المغتر بقوته ، أنَّ الله تعالى لا يقدر عليه لشدته وقوته ؟ قال

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٣٨ .(٢) البحر المحيط٨/ ٤٧٣ .(٣) في الحديث الذي رواه الشيخان إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحل لأحدٍ قبلي ، ولن تحل لأحدٍ بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار .) الحديث.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٩ (٥) تفسير البيضاوي ٣/ ٦٦٠ (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٠. (٧) تفسير الخازن ٤/ ٢٤٨
(٨) تفسير الخازن ٤/ ٢٤٨ (٩) نفس المرجع السابق (١٠) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٥

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾

المفسرون : نزلت في « أبي الأشد بن كلدة » كان شديداً مغتراً بقوته ، وكان يبسط له الأديم ـ الجلد ـ فيوضع تحت قدميه ، ويقول : من أزالني عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعاً ولا تزلّ قدماه ، ومعنى الآية : أيظن هذا القوي المارد ، المستضعف للمؤمنين ، أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد ؟ ﴿يقولُ أهلكت مالاً لُبَداً﴾ أي يقول هذا الكافر : أنفقت مالاً كثيراً في عداوة محمد ﷺ قال الألوسي : أي يقول فخراً ومباهاة على المؤمنين : أنفقت مالاً كثيراً ، وأراد بذلك ما أنفقه « رياءً وسمعةً » وعبر عن الإنفاق بالإهلاك ، إظهاراً لعدم الاكتراث ، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع ، فكأنه جعل المال الكثير ضائعاً ، وقيل يقول ذلك إظهاراً لشدة عداوته لرسول الله ﷺ[1] ﴿أيَحْسَبُ أن لم يره أحدٌ﴾ ؟ أي أيظن أنَّ الله تعالى لم يره حين كان ينفق ، ويظن أن أعماله تخفى على رب العباد ؟ ليس الأمر كما يظن ، بل إن الله رقيب مطلعٌ عليه ، سيسأله يوم القيامة ويجازيه عليه . . ثم ذكَّره تعالى بنعمه عليه ليعتبر ويتعظ فقال ﴿ألم نجعل له عينين﴾ أي ألم نجعل له عينين يبصر بهما ؟ ﴿ولساناً﴾ أي ولساناً ينطق به فيعبر عما في ضميره ؟ ﴿وشفتين﴾ أي وشفتين يطبقهما على فمه ، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ؟ قال الخازن : يريد أن نعم الله على عبده متظاهرة ، يقرره بها كي يشكره[2] ﴿وهديناه النجدين﴾ أي وبينا له طريقي الخير والشر ، والهدى والضلال ، ليسلك طريق السعادة ، ويتجنب طريق الشقاوة قال ابن مسعود : ﴿النجدين﴾ الخير والشر كقوله تعالى ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾[3] ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي فهلا أنفق ماله في اجتياز العقبة الكئود ، بدل أن ينفقه في عداوة محمد ﷺ ؟ ! قال في البحر : والعقبةُ استعارةٌ للعمل الشاق على النفس ، من حيث فيه بذل المال ، تشبيهاً لها بعقبة الجبل وهو ما صعب منه وقت الصعود ، فإنه يلحقه مشقة في سلوكها ، ومعنى اقتحمها دخلها بسرعة وشدة[4] ، وهو مثلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس ، والهوى ، والشيطان ، حتى ينال رضى الرحمن ﴿وما أدراك ما العقبةُ ؟ فكُّ رقبةٍ﴾ أي وما أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل . . ثم فسرها تعالى بقوله ﴿فكُّ رقبة﴾ أي هي عتق الرقبة في سبيل الله ، وتخليص صاحبها من الأسر والرقِّ ، فمن أعتق رقبة كانت له فداء من النار ﴿أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة﴾ أي أو أن يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة ، قال الصاوي وقيّد الإطعام بيوم المجاعة ، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس[5] ﴿يتيماً ذا مقربة﴾ أي أطعم اليتيم الذي بينه وبينه قرابة ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أو المسكين الفقير البائس الذي قد

---

(١) تفسير الألوسي ٣٠/ ١٣٦ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٢٤٩ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤١

(٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ٤٧٦ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٢٢ .

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

لصق بالتراب من فقره وضره ، وهوكناية عن شدة الفقر والبؤس قال ابن عباس : هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ أي عمل هذه القربات لوجه الله تعالى ، وكان مع ذلك مؤ مناً صادق الإيمان قال المفسرون : وفي الآية إشارة إلى أن هذه القُرَب والطاعات لا تنفع إلا مع الإيمان ﴿ وتواصوْابالصبر ، وتواصوا بالمرحمة﴾ أي وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن ، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ أي هؤ لاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة ، هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، ويسعدون بدخول جنات النعيم ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة﴾ قرن بين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجنة وأهل النار ، وبين السعداء والأشرار أي والذين جحدوا نبوة محمد وكذبوا بالقرآن هم أهل الشمال ـ أهل النار ـ لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم ، وعبر عنهم بضمير الغائب إشارة إلى أنهم غائبون عن حضرة قدسه ، وكرامة أُنسه ﴿عليهم نارٌ مؤصدة﴾ أي عليهم نارٌ مطبقة مغلقة ، لا يدخل فيها روحٌ ولا ريحان ، ولا يخرجون منها أبد الزمان[1] .. اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، ونجنا من ذلك يا رب .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ زيادة ﴿لا﴾ لتأكيد الكلام ، وهو مستفيض في كلام العرب ﴿لا أُقسم بهذا البلد﴾ أي أُقسم بهذا البلد ، وفائدتها تأكيد القسم كقولك: لا والله ما ذاك كما تقول أي والله قال امرؤ القيس: « لا وأبيك ابنة العامري » .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿ووالدٍ وما ولد﴾ فكل من الوالد والولد مشتق من الولادة .

٣ ـ الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ ؟ ومثله ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ ؟

٤ ـ الاستفهام التقريري للتذكير بالنعم ﴿ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين﴾ ؟

٥ ـ الاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ ؟ لأن الغرض تعظيم شأنها .

٦ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿وهديناه النجدين﴾ أي طريقي الخير والشر ، وأصل النجد الطريق المرتفع ، استعير كل منهما لسلوك طريق السعادة ، وسلوك طريق الشقاوة .

(١) اقتبسنا هذا التفسير من الطبري والقرطبي والبحر المحيط وتفسير ابن كثير وغيرها من أمهات كتب التفسير .

٧ ـ الاستعارة كذلك في قوله ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ لأن أصل العقبة الطريق الوعر في الجبل ، واستعيرت هنا للاعمال الصالحة لأنها تصعب وتشق على النفوس ، ففيه استعارة تبعية .

٨ ـ الجناس الناقص بين ﴿مقربة﴾ و ﴿متربة﴾ لتغير بعض الحروف .

٩ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ وبين ﴿أولئك أصحاب المشأمة﴾ .

١٠ ـ مراعاة الفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿لا أقسم بهذا البلد . . ووالدٍ وما ولد * لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ ومثل ﴿عينين ولساناً وشفتين﴾ وهو من المحسنات البديعية .

﴿تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد﴾

* * *



بين يدي السورة

* سورة الشمس مكية ، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما :

١ ـ موضوع النفس الإنسانية ، وما جبلها الله عليه من الخير والشر ، والهدى والضلال .

٢ ـ وموضوع الطغيان ممثلاً في ﴿ثمود﴾ الذين عقروا الناقة فأهلكهم الله ودمرهم .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا ، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع ، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع ، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه ، وبالليل إذا غطّى الكائنات بظلامه ، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد ، وبالأرض الذي بسطها على ماء جمد ، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات ، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله ، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد .

* ثم ذكر تعالى قصة ﴿ثمود﴾ قوم صالح حين كذبوا رسولهم ، وطغوا وبغوا في الأرض ، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم معجزةً لرسوله صالح عليه السلام ، وما كان من أمر هلاكهم

الفظيع الذي بقي عبرةً لمن يعتبر ، وهو نموذج لكل كافرٍ فاجرٍ مكذب لرسل الله .

* وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم ، لأنه ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾

اللغة : ﴿ضُحاها﴾ ضوءها ، والضحى وقت ارتفاع الشمس أول النهار قال المبرد : الضحى مشتقٌ من الضِح وهو نور الشمس[1] ﴿طحاها﴾ بسطها ومدَّها قال الجوهري : طحوتُه مثل دحوته أي بسطتُه[2] ﴿دسَّاها﴾ أخفاها وأصل الكلمة دسسها أبدلت السين الثانية ألفاً تخفيفاً ﴿فدمدم﴾ الدمدمة : إطباقُ الشيء على الشيء يقال : دمدم عليه القبر أي أطبقه والمراد به هنا إطباقُ العذاب عليهم بمعنى إهلاكهم بطريق الاستئصال ﴿عُقْباها﴾ عاقبتها وتبعتها .

التفسير : ﴿والشمس وضُحاها﴾ أي أُقسم بالشمس وضوئها الساطع إذا أنار الكون وبدَّد الظلام ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي وأُقسم بالقمر إذا سطع مضيئاً ، وتبع الشمس طالعاً بعد غروبها قال المفسرون : وذلك في النصف الأول من الشهر ، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور ، وحكمةُ القسم بالشمس أن العالم في وقت غيبة الشمس عنهم كالأموات ، فإذا ظهر الصبح وبزغت الشمس دبت فيهم الحياة ، وصار الأموات أحياء فانتشروا لأعمالهم وقت الضحوة ، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ، ووقتُ الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها ، والشمسُ والقمر مخلوقان لمصالح البشر ، والقسم بهما للتنبيه على ما فيهما من المنافع العظيمة[3] ﴿والنهار إذا جلاَّها﴾ أي وأقسم بالنهار إذا جلا ظلمة الله بضيائه ، وكشفها بنوره وقال ابن كثير : إذا جلا البسيطة وأضاء الكون بنوره[4] ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أي وأقسمُ بالليل إذا غطَّى الكون بظلامه ، ولفَّه بشبحه ، فالنهار يجلي المعمورة ويظهرها ، والليل يغطيها ويسترها ، قال الصاوي : وأتى بالفعل مضارعاً ﴿يغشاها﴾ ولم يقل ﴿غشيها﴾ مراعاةً للفواصل[5] ﴿والسماء وما بناها﴾ أي وأقسم بالقادر العظيم الذي بنى السماء ، وأحكم بناءها بلا عمد قال المفسرون : ﴿ما﴾ اسم موصول بمعنى « مَنْ » أي والسماء ومن بناها والمراد به الله رب العالمين ، بدليل قوله بعده ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ كأنه قال : والقادر العظيم الشأن الذي بناها ، فدلَّ بناؤها

(١) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ١٤٠ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٤ . (٣) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٢٣ .
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٤ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٢١ .

وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾

وإحكامها على وجوده ، وكمال قدرته ﴿**والأرض وما طحاها**﴾ أي وأُقسمُ بالأرض ومن بسطها من كل جانب ، وجعلها ممتدة ممهَّدة ، صالحة لسكنى الإنسان والحيوان ، وهذا لا ينافي كرويتها كما قال المفسرون ، لأن الغرض من الآية الامتنان بجعل الأرض ممتدة واسعة ، ميسَّرة للزراعة والفلاحة وسكنى الإنسان[1] ﴿**ونفسٍ وما سوَّاها**﴾ أي وأقسمُ بالنفس البشرية وبالذي أنشأها وأبدعها ، وجعلها مستعدة لكمالها ، وذلك بتعديل أعضائها ، وقواها الظاهرة والباطنة ، ومن تمام تسويتها أن وهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر ، والتقوى والفجور ، ولهذا قال ﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾ أي وعرَّفها الفجور والتقوى ، وما تميز به بين رشدها وضلالها قال ابن عباس : بيَّن لها الخير والشر ، والطاعة والمعصية ، وعرَّفها ما تأتي وما تتقي قال المفسرون : أقسم سبحانه بسبعة أشياء « الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والسماء ، والأرض ، والنفس البشرية » إظهاراً لعظمة قدرته ، وانفراده بالألوهية ، واشارةً إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعظم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها وقال الإمام الفخر : لما كانت الشمس أعظم المحسوسات ، ذكرها تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمها ، ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة ، ووصفها ـ جلَّ وعلا ـ بصفاتٍ ثلاث ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته ، كما يليق به جلَّ جلاله ، فكان ذلك طريقاً إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات ، إلى بيداء أوج كبريائه جلَّ شأنه[2] ﴿**قد أفلح من زكَّاها**﴾ هذا هو جواب القسم أي لقد فاز وأفلح من زكَّى نفسه بطاعة الله ، وطهَّرها من دنس المعاصي والآثام ﴿**وقد خاب من دسَّاها**﴾ أي وقد خسر وخاب من حقَّر نفسه بالكفر والمعاصي ، وأوردها موارد الهلكة ، فإنَّ من طاوع هواه ، وعصى أمر مولاه ، فقد نقص من عداد العقلاء ، والتحق بالجهلة الأغبياء . . ثم ضرب تعالى مثلاً لمن طغى وبغى ، ولم يطهر نفسه من دنس الكفر والعصيان ، فذكر ﴿**ثمود**﴾ قوم صالح عليه السلام فقال ﴿**كذَّبت ثمودُ بطغواها**﴾ أي كذبت ثمود نبيها بسبب طغيانها ﴿**إذ انبعث أشقاها**﴾ أي حين انطلق أشقى القوم بسرعةٍ ونشاط يعقر الناقة قال ابن كثير : وهو « قدار بن سالف » الذي قال الله فيه ﴿**فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر**﴾ وكان عزيزاً شريفاً في قومه ، ورئيساً مطاعاً فيهم ، وهو أشقى القبيلة[3] ﴿**فقال لهم رسول الله**﴾ أي فقال لهم صالح عليه السلام ﴿**ناقةَ اللهِ وسُقياها**﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، واحذروا أيضاً أن تمنعوها من سُقياها أي شربها ونصيبها من الماء كما قال تعالى ﴿**لها شربٌ ولكم شرب يومٍ معلوم**﴾ ﴿**فكذبوه فعقروها**﴾ أي فكذبوا نبيهم صالحاً وقتلوا الناقة ، ولم يلتفتوا

---

(١) انظر أقوال المفسرين في إثبات كروية الأرض في سورة لقمان (٢) التفسير الكبير للرازي ٣٠/ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٥ .

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

إلى تحذيره ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ أي فأهلكهم اللهُ ودمَّرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم قال الخازن : والدمدمة : هلاكٌ باستئصال والمعنى أطبق عليهم العذاب طبقاً فلم ينفلت منهم أحد[1] ﴿فسوَّاها﴾ أي فسوَّى بين القبيلة في العقوبة فلم يفلت منهم أحد ، لا صغير ولا كبير ، ولا غنيٌ ولا فقير ﴿ولا يخاف عُقباها﴾ أي ولا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم ، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون ، لأنه تعالى لا يُسأل عما يفعل .

البَلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿الشمس والقمر﴾ و﴿الليل والنهار﴾ وبين ﴿فجورها وتقواها﴾ .

٢ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿والنهار إذا جلاَّها﴾ وبين ﴿والليل إذا يغشاها﴾ وبين ﴿قد أفلح من زكَّاها﴾ وبين ﴿وقد خاب من دسَّاها﴾ وكلٌ من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية .

٣ ـ الإضافة للتكريم والتشريف ﴿ناقة الله﴾ نسبت إلى الله تشريفاً لأنها خرجت من حجرٍ أصم معجزةً لصالح عليه السلام .

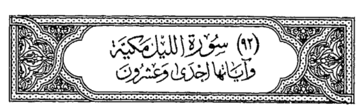
٤ ـ التهويل والتفظيع ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ فإن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب .

٥ ـ السجع المرصَّع مراعاة للفواصل ورءوس الآيات وهو ظاهر جليٌ في السورة الكريمة .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس »

***

(١) الخازن ٤



بين يدي السورة

* سورة الليل مكية ، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله ، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة ، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه ، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه ، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى ، أقسم على أن عمل الخلائق مختلف ، وطريقهم متباين ﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلَّى * وما خلقَ الذكر والأُنثى * إن سعيكم لشتَّى﴾ .

* ثم وضحت سبيل السعادة ، وسبيل الشقاء ، ورسمت الخطَّ البياني لطالب النجاة ، وبينت أوصاف الأبرار والفجار ، وأهل الجنة وأهل النار ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدَّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى﴾ .

* ثم نبهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها ، وثرواتهم التي كدسوها ، وهي لا تنفعهم في القيامة شيئاً ، وذكَّرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردَّى * إنَّ علينا للهدى * وإنَّ لنا للآخرة والأولى﴾ .

* ثم حذَّرت أهل مكة من عذاب الله وانتقامه ، ممن كذَّب بآياته ورسوله ، وأنذرهم من نار حامية تتوهج من شدة حرها ، لا يدخلها ولا يذوق سعيرها إلا الكافر الشقي ، المعرض عن هداية الله ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى * لايصلاها إلا الأشقى * الذي كذب وتولى﴾ .

* وختمت السورة بذكر نموذج للمؤمن الصالح ، الذي ينفق ماله في وجوه الخير ، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله ، وضربت المثل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله ﴿وسيجنبها الاتقى * الذي يؤ تي ماله يتزكى * وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾ .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾

اللغـــة : ﴿تجلّى﴾ انكشف وظهر ﴿شتّى﴾ متفرق ومختلف ﴿الحسنى﴾ الكلمة الحسنى وهي كلمة التوحيد ﴿اليُسرى﴾ الخصلة المؤدية الى اليسر والراحة وهي الجنة ﴿العسرى﴾ الخصلة المؤدية إلى العسر والشدة وهي جهنم ﴿تردّى﴾ هلك وسقط في الهاوية ﴿تلظى﴾ أصلها تتلظى أي تتلهب وتتوقد ﴿يصلاها﴾ يدخلها ويقاسي حرها .

المنَاسَبَة : روي أن بلالاً رضي الله عنه كان عبداً مملوكاً لـ « أُمية بن خلف » وكان سيده يعذبه لإسلامه ، ويخرجه إذا حميت الشمسُ فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ! ! فيقول وهو في تلك الحالة : أحدٌ ، أحد ، فمرَّ به أبو بكر الصديق وهم يصنعـون به ذلك ، فقـال لأميةِ : ألا تتقي اللـه في هذا المسكين ! ! فقال له : أنت أفسدته عليَّ فأنقذه مما ترى ، فاشتراه أبو بكرٍ منه وأعتقه في سبيل الله ، فقال المشركون : إنما أعتقه ليدٍ كانت له عنده فنزلت ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾[1] .

التفسِير : ﴿والليـل إذا يغشـى﴾ أي أُقسمُ بالليل إذا غطّى بظلمته الكون ، وستر بشبحه الوجود ﴿والنهـار إذا تجلـى﴾ أي وأُقسمُ بالنهار إذا تجلّى وانكشف ، وأنار العالم وأضـاء الـكون قال المفسرون : أقسم تعالى بالليل لأنه سكنٌ لكافة الخلق ، يأوي فيه الإنسان والحيوان إلى مأواه ، ويسكن عن الاضطراب والحركة ، ثم أقسم بالنهار لأن فيه حركة الخلق وسعيهم إلى اكتساب الرزق ، والحكمة في هذا القسم ما في تعاقب الليل والنهار من مصالح لا تُحصى فإنه لوكان العمر كله ليلاً لتعذر المعاش ، ولو كان كله نهاراً لما سكن الإنسان إلى الراحة ، ولاختلت مصالح البشر ﴿ومـا خلـق الذكـر والأنثـى﴾ أي وأُقسمُ بالقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى ، من نطفةٍ إذا تمنى . . أقسم تعالى بذاته على خلق النوعين ﴿الذكر والأنثى﴾ للتنبيه على أنه الخالق المبدع الحكيم ، إذْ لا يُعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى يحصل بمحض الصدفة من طبيعة بلهاء لا شعور لها فإن الأجزاء الأصـلية في المنيّ متسـاوية ، فتكوينُ الولد من عناصر واحدة تارةً ذكراً ، وتارة أنثى ، دليلٌ على أن واضع هذا النظام عالم ، بما يفعل ، محكم لما يصنع ﴿إنَّ سعيكـم لشتـى﴾ هذا هو جواب القسم أي إن عملكم لمختلف ، فمنكم تقيٌ ومنكم شقي ، ومنكم صالحٌ ومنكم طالح ، ثم فسَّره بقوله ﴿فأمَّـا مـن أعطـى واتَّقـى﴾ أي فأما من

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٢٦ وتفسير الخازن ٤/ ٢٥٦ .

وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

أعطى ماله وأنفق ابتغاء وجه الله ، واتقى ربه فكف عن محارم الله قال ابن كثير : أعطى ما أُمر باخراجه ، واتقى الله في أموره[1] ﴿وصدَّق بالحُسنى﴾ أي وصدَّق بالجنة التي أعدَّها الله للأبرار ﴿فسنيسره لليُسرى﴾ أي فسنهيئه لعمل الخير، ونسهّل عليه الخصلة المؤدية لليسر ، وهي فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿وأمَّا من بخل واستغنى﴾ أي وأمَّا من بخل بإنفاق المال ، واستغنى عن عبادة ذي الجلال قال ابن عباس : بخل بماله ، واستغنى عن ربه عزَّ وجل ﴿وكذَّب بالحسنى﴾ أي وكذَّب بالجنة ونعيمها ﴿فسنيسره للعُسرى﴾ أي فسنهيئه للخصلة المؤدية للعسر ، وهي الحياة السيئة في الدنيا والآخرة وهي طريق الشر قال المفسرون : سمَّى طريقة الخير يسرى لأن عاقبتها اليسر وهي دخول الجنة دار النعيم ، وسمَّى طريقة الشرِّ عسرى لأن عاقبتها العسر وهو دخول الجحيم ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ استفهام إنكاري أيْ أيُّ شيء ينفعه ماله إذا هلك وهوى في نار جهنم ؟ هل ينفعه المال ، ويدفع عنه الوبال ؟ ﴿إنَّ علينا للهُدى﴾ أي إنَّ علينا ان نبيِّن للناس طريق الهدى من طريق الضلالة ، ونوضّح سبيل الرشد من سبيل الغي كقوله ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ﴿وإنَّ لنا للآخرة والأُولى﴾ أي لنا ما في الدنيا والآخرة ، فمن طلبهما من غير الله فقد أخطأ الطريق ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾ أي فحذرتكم يا أهل مكة ناراً تتوقَّد وتتوهج من شدة حرارتها ﴿لا يصلاها إلاَّ الأشقى﴾ أي لا يدخلها للخلود فيها ولا يذوق سعيرها ، إلاَّ الكافر الشقي . . ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿الذي كذَّب وتولَّى﴾ أي كذَّب الرسل وأعرض عن الايمان ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ أي وسيبعد عن النار التقيُّ النقيُّ ، المبالغ في اجتناب الشرك والمعاصي . . ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿الذي يؤتي ماله يتزكَّى﴾ أي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليزكي نفسه ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى﴾ أي وليس لأحدٍ عنده نعمة حتى يكافئه عليها ، وإنما ينفق لوجه الله قال المفسرون : نزلت الآيات في حقِّ « أبي بكر الصديق » حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله فقال المشركون : إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فنزلت ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ أي ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿ولسوف يرضى﴾ أي ولسوف يعطيه الله في الآخرة ما يرضيه وهو وعدٌ كريم من رب رحيم .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٦ .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين لفظة ﴿الأشقى﴾ و ﴿الأتقى﴾ وبين ﴿اليسرى﴾ و ﴿العسرى﴾ .

٢ ـ المقابلة اللطيفة ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى﴾ وبين ﴿وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى﴾ الآيات .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿فسنيسره لليسرى﴾ لأن اليسرى من التيسير فبينهما مجانسة .

٤ ـ حذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع كل مذهب ﴿فأما من أعطى واتقى . .﴾ الآيات .

٥ ـ السجع الرصين غير المتكلف كقوله ﴿لا يصلاها إلا الأشقى . . . وسيجنبها الأتقى﴾ الخ .

كان عمر رضي الله عنه يقول : أعتق سيدُنا سيدَنا يريد أعتق سيدنا أبو بكر سيدنا بلالاً ، فما أروع هذه النفوس ؟ اللهم ارزقنا محبة أصحاب الرسول جميعاً .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الضحى مكية ، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة ، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون ، بل هو عند الله رفيع القدر ، عظيم الشأن والمكانة ﴿والضُحى * والليل إذا سجى * ما ودّعك ربُّك وما قلى * وللآخرة خيرٌ لك من الأولى﴾ .

* ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة ، وما أعدَّه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات ، ومنها

الشفاعة العظمى ﴿ولسـوف يعطيـك ربك فترضـى﴾ .

* ثم ذكَّرته بما كان عليه في الصغر ، من اليتم ، والفقر ، والفاقة ، والضياع ، فآواه ربه وأغناه ، وأحاطه بكلأه وعنايته ﴿ألـم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنـى﴾ .

* وختمت السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث ، مقابل تلك النعم الثلاث ، ليعطف على اليتيم ، ويرحم المحتاج ، ويمسح دمعة البائس المسكين ﴿فأمَّـا اليتيم فلا تقهر * وأمَّـا السائل فلا تنهر * وأمَّا بنعمة ربك فحدث﴾ وهو ختمٌ يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان .

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ

اللغـــة : ﴿سجى﴾ سجى الليل : اشتد ظلامه ﴿قلى﴾ أبغض قال الراغـب : القلي : شدة البغض يقال : قلاه ويقليه أي أبغضه[1] ﴿آوى﴾ ضمَّه إلى من يرعاه ﴿عائلاً﴾ فقيراً معدماً وهو من اشتد به الفقر قال جرير :

اللـــهُ نزَّل في الكتـــاب فريضةً لابـــن السـبيل وللفقيـر العائل[2]

﴿تقهر﴾ تذله وتحقره ﴿تنهر﴾ تزجره وتغلظ عليه في الكلام .

سَبَبُ النُّزول : اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأةٌ ـ وهي أم جميل امرأة أبي لهب ـ فقالت يا محمد : إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ! ! لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله عز وجل : ﴿والضحى * والليل إذا سَجى * ما ودَّعك ربُّـك وما قلى﴾[3] .

التفسيـــر : ﴿والضحـى * واللَّيل إذا سجى﴾ أقسم تعالى بوقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمسُ ، وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه ، وغطَّى كل شيء في الوجود قال ابن عباس : ﴿سجـى﴾ أقبل بظلامه[4] قال ابن كثير : هذا قسمٌ منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، وبالليل إذا سكن فأظلم وأدلهمَّ ، وذلك دليلٌ ظاهر على قدرته تعالى[5] ﴿مـا ودَّعـك ربـك وما قلـى﴾ أي ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك ، ولا أبغضك منذ أحبك ، وهذا ردٌّ على المشركين حين قالوا : هجره ربه ، وهو جواب القسم ﴿وللآخرةُ خيـرٌ لـك من الأولـى﴾ أي وللدارُ الآخرة خيرٌ لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا ، لأن الآخرة باقية ، والدنيا فانية ، ولهذا كان عليه السلام يقول : اللهم لا عيش إلا عيشُ الآخرة ﴿ولسـوف

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني . (٢) البحر المحيط ٨/ ٤٨٦ . (٣) الحديث في الصحيحين بدون ذكر اسم المرأة .
(٤) تفسير الخازن ٤/ ٢٥٨ . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٩ .

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

يُعطيك ربك فترضى﴾ أي سوف يعطيك ربك في الآخرة من الثواب ، والكرامة ، والشفاعة ، وغير ذلك إلى أن ترضى قال ابن عباس : هي الشفاعة في أمته حتى يرضى ، لما روي أن النبي ﷺ ذكر أمته فقال : اللهم أُمتي أُمتي وبكى ، فقال الله يا جبريل إذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك ؟ ـ وهو أعلم ـ فأتى جبريل رسول الله ﷺ وسأله فأخبره رسول الله بما قال ، فقال الله يا جبريل : اذهب إلى محمد وقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[1] ، وفي الحديث (لكل نبي دعوةٌ **مستجابة، فتعجَّل** كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة)[2] الحديث قال الخازن : والأولى حملُ الآية على ظاهرها ليشمل خيري الدنيا والآخرة معاً ، فقد أعطاه الله تعالى في الدنيا النصر والظفر على الأعداء ، وكثرة الأتباع والفتوح ، وأعلى دينه ، وجعل أمته خير الأمم ، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة ، والمقام المحمود ، وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة[3] . . ثم لما وعده بهذا الوعد الجليل ، ذكَّره بنعمه عليه في حال صغره ليشكر ربه فقال **﴿ألـم يجـدك يتيمـاً فآوى﴾** أي ألم تكنْ يا محمد يتيماً في صغرك ، فآواك الله إلى عمك أبي طالب وضمَّك إليه ؟ قال ابن كثير : وذلك أن أباه توفي وهو حملٌ في بطن أمه ، ثم توفيت أُمه وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده « عبد المطلب » إلى أن تُوفي وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه « أبو طالب » ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله ﷺ ، وكلُّ هذا من حفظ الله له ، وكلاءته وعنايته به[4] **﴿ووجَـدك ضالاً فهـدى﴾** أي ووجدك تائهاً عن معرفة الشريعة والدين فهداك إليها كقوله تعالى **﴿ما كنـت تدري ما الكتابُ ولا الإيمـانُ﴾** قال الإمام الجلال : أي وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك إليها[5] ، وقيل : ضلَّ في بعض شعاب مكة وهو صغير فردَّه الله إلى جده قال أبو حيان : لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى ، لأن الأنبياء معصومون من ذلك قال ابن عباس : هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة[6] ، وقيل : ضلَّ وهو مع عمه في طريق الشام[7] **﴿ووجـدك عائلاً فأغنـى﴾** أي ووجدك فقيراً محتاجاً فأغناك عن الخلق ، بما يسَّر لك من أسباب التجارة . . ولمَّا عدَّد عليه هذه النعم الثلاث ، وصَّاه بثلاث وصايا مقابلها فقال **﴿فأمـا اليتيـم فـلا تقهـر﴾** أي فأما اليتيم فلا تحتقره ولا تغلبه على ماله قال مجاهد : أي لا تحتقره وقال سفيان : لا تظلمه بتضييع مالـه ، والمراد كن لليتيم كالأب الرحيم ، فقد كنت يتيماً فآواك الله **﴿وأمَّـا السائـل فلا تنهـر﴾** أي وأمَّا السائل المستجدي الذي يسأل عن حاجة وفقر ، فلا تزجره إذا سألك ولا تُغلظ له القول بل أعطه أو ردَّه رداً جميلاً قال قتادة : ردَّ المسكين برفقٍ ولين **﴿وأمَّـا بنعمـة ربـك فحـدث﴾** أي حدِّثْ الناس بفضل الله وإنعامه عليك ، فإن

---
(١) أخرجه مسلم . (٢) أخرجه الشيخان . (٦) تفسير الخازن ٤/ ٢٦٠ .
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٠ . (٥) تفسير الجلالين ٤/ ٣٣٠ .

التحدث بالنعمة شكر لها قال الألوسي : كنت يتيماً وضالاً وعائلاً ، فآواك الله وهداك وأغناك ، فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث ، فتعطَّف على اليتيم ، وترحَّم على السائل ، فقد ذقت اليتم والفقر ، وأرشد العباد إلى طريق الرشاد، كما هداك ربك[1] .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿الآخرة﴾ و ﴿الأولى﴾ لأن المراد بالأولى الدنيا وهي تطابق الآخرة .

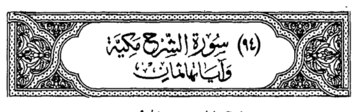
٢ ـ المقابلة اللطيفة ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك عائلاً فأغنى﴾ قابلها بقوله ﴿فأمَّا اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر﴾ وهي من لطائف علم البديع .

٣ ـ الجناس الناقص بين ﴿تقهـر﴾ و ﴿تنهر﴾ لتغير الحرف الثاني من الكلمتين .

٤ ـ السجع المرصَّع كأنه الدر المنظوم في غقد كريم ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الضحى »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الإنشراح مكية ، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة ، ومقامه الرفيع عند الله تعالى ، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وذلك بشرح صدره بالإيمان ، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان ، وتطهيره من الذنوب والأوزار ، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه من أذى الفجار ، وتطييب خاطره الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿ألم نشرحْ لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك﴾ .

* ثم تحدثت عن إعلاء منزلة الرسول ، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة ، وقرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ .

(١) تفسير الألوسي ١٦٤/٣٠.

* وتناولت السورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين ، فآنسه بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿فإن مع العسر يسراً * إنَّ مع العسر يسراً﴾ .

* وختمت بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله ، بعد انتهائه من تبليغ الرسالة ، شكراً لله على ما أولاه من النعم الجليلة ﴿فإذا فرغتَ فانصب * وإلى ربك فارغبْ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

التفسير : ﴿ألمْ نشرحْ لك صدرك﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير أي قد شرحنا لك صدرك يا محمد بالهدى والإيمان ، ونور القرآن كقوله تعالى ﴿فمن يرد اللهُ أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ قال ابن كثير : أي نورناه وجعلناه فسيحاً ، رحيباً ، واسعاً ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً ، سمحاً ، سهلاً ، لا حرج فيه ولا إصرْ ولا ضيق[1] وقال أبو حيان : شرحُ الصدر تنويره بالحكمة ، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه وهو قول الجمهور ، وقيل : هو شق جبريل لصدره في صغره وهو مرويٌ عن ابن عباس[2] ﴿ووضعنا عنك وِزرك﴾ أي حططنا عنك حملك الثقيل ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ أي الذي أثقل وأوهن ظهرك قال المفسرون : المراد بالوزر الأمور التي فعلها ﷺ ،وَوَضْعُهاعنه هو غفرانها له كقوله تعالى ﴿ليغفر لك اللهُ ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر﴾ وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام ، فإن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم ، ولكن ما فعله عليه السلام عن اجتهاد وعوتب عليه ، كإذنه ﷺ للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا ، وأخذه الفداء من أسرى بدر ، وعبسه في وجه الأعمى ونحو ذلك ، قال في التسهيل : وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل ، وهي صغائر مغفورة لهم ، لهمِّهم بها وتحسرهم عليها ، فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله وهذا كما ورد في الأثر (إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه ، والمنافق يرى ذنوبه كالذبابة تطير فوق أنفه)[3] والنقيضُ هو الصوتُ الذي يسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ أي رفعنا شأنك ، وأعلينا مقامك في الدنيا والآخرة ، وجعلنا اسمك مقروناً باسمي قال مجاهد : لا أُذكر إلا ذكرت معي وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ، ولا متشهد ، ولا صاحب صلاة إلا ينادي : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وفي الحديث (أتاني جبريل فقال لي يا محمد : إن ربك يقول : أتدري

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٢ . (٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٤٨٧ والرواية التي أشار إليها ذكرت في صحيح مسلم ، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ـ وهو يلعب مع الغلمان ـ فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرجه واستخرج منه علقة وقال : هذا حظُّ الشيطان منك ، ثم غسله في طستٍ من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره المرضعة ـ فقالوا إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. أخرجه مسلم قال أنس : وكنت أرى أثر المخيط في صدره .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٠٦ .

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾

كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله تعالى أعلم ، قال : إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي)[1] قال في البحر : قرن الله ذكر الرسول بذكره جل وعلا في كلمة الشهادة ، والأذان والإقامة ، والتشهد ، والخطب ، وفي غير موضع من القرآن ، وأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به[2] كما قال حسان بن ثابت :

وضمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشقَّ له من إسمه ليُجله ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمد[3]

﴿فإن مع العسر يُسراً﴾ أي بعد الضيق يأتي الفرج ، وبعد الشدة يكون المخرج قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ في مكة في ضيق وشدة هو وأصحابه ، بسبب أذى المشركين للرسول والمؤمنين ، فوعده الله باليسر ، كما عدَّد عليه النعم في أول السورة تسلية وتأنيساً له ، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه ، وكأن الله تعالى يقول : إنَّ الذي أنعم عليك بهذه النعم الجليلة ، سينصرك عليهم ، ويظهر أمرك ، ويبدل لك هذا العسر بيسر قريب ، ولذلك كرره مبالغة فقال : ﴿إنَّ مع العُسر يُسراً﴾ أي سيأتي الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر فلا تحزن ولا تضجر وفي الحديث ﴿لن يغلب عسرٌ يسرين﴾[4] ﴿فإذا فرغتَ فانصبْ﴾ أي فإذا فرغت يا محمد من دعوة الخلق ، فاجتهد في عبادة الخالق ، وإذا انتهيت من أمور الدنيا ، فأتعب نفسك في طلب الآخرة ﴿وإلى ربك فارغبْ﴾ أي اجعل همَّك ورغبتك فيما عند الله ، لا في هذه الدنيا الفانية قال ابن كثير : المعنى إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها ، وقطعت علائقها ، فانصب إلى العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة[5] .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمن ﴿ألم نشرح لك صدرك . .﴾ الخ .

٢ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك﴾ شبَّه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية .

٣ ـ التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿إن مع العسر يسراً﴾ نكر اليسر للتعظيم كأنه قال يسراً كبيراً .

٤ ـ الجناس الناقص بين لفظ ﴿اليسر﴾ و ﴿العسر﴾ .

٥ ـ تكرير الجملة لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ﴿إن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾ ويسمى هذا بالإطناب .

٦ ـ السجع المرصَّع مراعاة لرءوس الآيات ﴿فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغبْ﴾ ومثلها ﴿ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك﴾ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الإنشراح »

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٢ . (٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٤٨٨ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٢ .
(٤) أخرجه الحاكم والبيهقي . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٣ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة التين مكية ، وهي تعالج موضوعين بارزين هما :

الأول : تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .

الثاني . موضوع الايمان بالحساب والجزاء .

* ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة ، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله وهي « بيت المقدس » و « جبل الطور » و « مكة المكرمة » على أن الله تعالى كرّم الإنسان ، فخلقه في أجمل صورة ، وأبدع شكل ، وإذا لم يشكر نعمة ربه فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم ﴿والتينِ والزيتون* وطور سينين* وهذا البلد الأمين﴾ .

* ووبخت الكافر على إنكاره للبعث والنشور ، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة رب العالمين ، في خلقه للإنسان في أحسن شكل ، وأجمل صورة ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ .

* وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين ، وعقاب الكافرين ﴿فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ ؟ وفيها تقرير للجزاء ، وإثبات للمعاد .

اللغــة : ﴿طور سينين﴾ هو جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى ومعنى ﴿سينين﴾المبارك ﴿تقويم﴾ تعديل يقال : قوَّم العود أي عدَّله وجعله مستقيا ، وقوَّمه الدهر جعله متزناً حصيف الرأي والعقل ﴿ممنون﴾ مقطوع ﴿الدين﴾ الجزاء مأخوذ من دان بمعنى جازى ومنه الحديث الشريف (كما تدين تُدان) أي كما تفعل تُجازى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾

التفسير : ﴿والتِّين والزَّيتون﴾ هذا قسمٌ أي أُقسمُ بالتين والزيتون لبركتهما وعظيم

وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾

منفعتهما قال ابن عباس : هو تينكم الذي تأكلون ، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت[1] وقال عكرمة : أقسم تعالى بمنابت التين والزيتون ، فإن التين ينبتُ كثيراً بدمشق ، والزيتون ببيت المقدس[2] . . وهو الأظهر ، ويدل عليه أن الله تعالى عطف عليه الاماكن «جبل الطور» و«البلد الأمين» فيكون قسماً بالبقاع المقدسة التي شرّفها الله تعالى بالوحي والرسالات السماوية ﴿وطور سينين﴾ أي وأُقسم بالجبل المبارك الذي كلّم الله عليه موسى وهو « طور سيناء » ذو الشجر الكثير ، الحسن المبارك قال الخازن : سمي « سينين » و « سيناء » لحسنه ولكونه مباركاً ، وكلُّ جبلٍ فيه أشجارٌ مثمرة يسمى سينين وسيناء[3] ﴿وهذا البلد الأمين﴾ أي وأُقسم بالبلد الأمين « مكة المكرمة » التي يأمن فيها من دخلها على نفسه وماله كقوله تعالى ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناسُ من حولهم﴾ ! ! قال الألوسي : هذه أقسام ببقاع مباركة شريفة على ما ذهب إليه الكثيرون ، فأما البلد الأمين فمكة المكرمة ـ حماها الله ـ بلا خلاف ، وأما طور سينين فالجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه ، ويقال له : طور سيناء ، وأما التين والزيتون فروي عن قتادة أن المراد بهما جبلان : أحدهما بدمشق ، والثاني ببيت المقدس ، وعنى بالتين والزيتون منبتيهما ، وقيل : المراد بهما الشجران المعروفان وهو قول ابن عباس ومجاهد ، والغرض من القسم بتلك الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة ، وما ظهر فيها من الخير والبركة ببعثة الأنبياء والمرسلين[4] وقال ابن كثير : ذهب بعض الأئمة إلى أن هذه محالٌّ ثلاث ، بعث الله في كلٍ منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول : محلة التين والزيتون وهي « بيت المقدس » التي بعث الله فيها عيسى عليه السلام والثاني : طور سينين وهو « طور سيناء » الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران والثالث : البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل الله فيه محمداً ﷺ ، وقد ذكر في آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة « جاء اللهُ من طور سيناء ـ الجبل الذي كلم الله عليه موسى ـ وأشرق من ساعير ـ يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ » فذكرهم بحسب ترتيبهم بالزمان ، وأقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما[5] ، وجواب القسم هو قوله ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي لقد خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل ، متصفاً بأجمل وأكمل الصفات ، من حسن الصورة ، وانتصاب القامة ، وتناسب الأعضاء ، مزيناً بالعلم والفهم ، والعقل والتمييز ، والنطق والأدب ، قال مجاهد : ﴿أحسن تقويم﴾ أحسن صورة ، وأبدع خلق[6] ﴿ثمَّ رددناهُ أسفل سافلين﴾ أي ثم أنزلنا درجته إلى أسفل سافلين ، لعدم قيامه بموجب ما خلقناه عليه ، حيث لم يشكر نعمة خلقنا له في أحسن صورة ، ولم

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ١١٠ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٤٨٩ . (٣) تفسير الخازن ٤/ ٢٦٦ .
(٤) روح المعاني ٣٠/ ١٧٣ بشيء من الايجاز . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٤ . (٦) تفسير الطبري ٣٠/ ١٥٦ .

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝﴾

يستعمل ما خصصناه به من المزايا في طاعتنا ، فلذلك سنرده إلى أسفل سافلين وهي جهنم قال مجاهد والحسن : ﴿أسفل سافلين﴾ أسفل دركات النار وقال الضحاك : أي رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة[1] قال الألوسي : والمتبادرُ من السياقِ الإشارة الى حالة الكافر يوم القيامة ، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها ، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها[2] ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي إلا المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح ﴿فلهم أجرٌ غير ممنون﴾ أي فلهم ثواب دائم غير مقطوع عنهم ، وهو الجنة دار المتقين ﴿فما يكذِّبك بعدُ بالدين﴾ الخطاب للإنسان على طريقة الالتفات أي فما سبب تكذيبك أيها الانسان ، بعد هذا البيان وبعد وضوح الدلائل والبراهين ؟ فإن خلق الإنسان من نطفة ، وإيجاده في أجمل شكل وأبدع صورة ، من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء ، فما الذي يدعوك إلى التكذيب بيوم الدين بعد هذه البراهين ؟ ﴿أليس اللهُ بأحكم الحاكمين﴾ أي أليس الله الذي خلق وأبدع ، بأعدل العادلين حكماً وقضاءً وفصلاً بين العباد ؟ ! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا قرأها قال : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المجاز العقلي بإطلاق الحال وإرادة المحل ﴿والتين والزيتون﴾ أراد موضعهما الشام وبيت المقدس على القول الراجح .

٢ ـ الطباق بين ﴿أحسن تقويم﴾ وبين ﴿أسفل سافلين﴾ .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿أحكم الحاكمين﴾ .

٤ ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب ﴿فما يكذبك﴾ ؟!

٥ ـ الاستفهام التقريري ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ ؟

٦ ـ السجع المرصَّع ﴿البلد الأمين . . أسفل سافلين . . أحكم الحاكمين﴾ والله أعلم .

لَطِيفَة : ذكر الإمام القرطبي أن « عيسى الهاشمي » كان يحب زوجته حباً شديداً ، فقال لها يوماً : أنت طالقٌ ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر ! ! فاحتجبت عنه وقالت طلقتني ، فحزن حزناً شديداً وذهب إلى الخليفة « المنصور » وأخبره الخبر ، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم ، فقال جميع من

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ١١٥ . (٢) تفسير الألوسي ٣٠/ ١٧٦ .

حضر : قد طُلّقت ، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة فقد بقى ساكتاً فقال له المنصور : مالك لا تتكلم ؟ فقال له الرجل يا أمير المؤمنين : يقول الله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان ، فقال صدقت ، وردها إلى زوجها .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التين »

* * *



بين يدي السورة

* سورة العلق وتسمى ﴿سورة إقرأ﴾ مكية وهي تعالج القضايا الآتية :

أولاً : موضوع بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء محمد ﷺ .

ثانياً : موضوع طغيان الإنسان بالمال وتمرده على أوامر الله .

ثالثاً : قصة الشقي « أبي جهل » ونهيه الرسول ﷺ عن الصلاة .

* ابتدأت السورة ببيان فضل الله على رسوله الكريم بإنزاله هذا القرآن « المعجزة الخالدة » وتذكيره بأولْ النعماء وهو يتعبد ربه بغار حراء ، حيث تنزَّل عليه الوحي بآيات الذكر الحكيم ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق . . إلى . . علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ .

* ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء ، وتمرده على أوامز الله بسبب نعمة الغنى ، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على إفضاله ، لا أن يجحد النعماء ، وذكَّرته بالعودة إلى ربه لينال الجزاء ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى﴾ .

* ثم تناولت قصة « أبي جهل » فرعون هذه الأمة ، الذي كان يتوعد الرسول ويتهدده ، وينهاه عن الصلاة ، انتصارا للأوثان والأصنام ﴿أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلّى﴾ الآيات .

* وختمت السورة بوعيد ذلك الشقي الكافر ، بأشد العقاب إن استمر على ضلاله وطغيانه ، كما

أمرت الرسول الكريم بعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية﴾ إلى ختام السورة ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ .

* وقد بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعلم ، وختمت بالصلاة والعبادة ـ ليقترن العلم بالعمل ، ويتناسق البدء مع الختام .

اللغة : ﴿علق﴾ جمع علقة وهي الدم الجامد ، سميت علقة لأنها تعلق بالرحم ﴿نسفعاً﴾ السَّفع : الجذب بشدة وقوة قال أهل اللغة : سفعت بالشيء إذا قبضتُ عليه وجذبته جذباً شديداً ، وسفع بناصية فرسه جذبها قال الشاعر :

قومٌ إذا كثر الصياح رأيتهم ... ما بين ملجم مهره أو سافع[1]

﴿الناصية﴾ شعر مقدَّم الرأس ﴿الزبانية﴾ مأخوذ من الزَّبن وهو الدفع ، والمراد بهم ملائكة العذاب ، الغلاظ الشداد ، والعرب يطلقون هذا الاسم على مَن اشتد بطشه قال الشاعر :

مطاعيم في القُصْوى ، مطاعين في الوغى ... زبانيةٌ غلبٌ عظام حلومها[2]

روي أن أبا جهل اللعين قال لأصحابه يوماً: هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ ـ يريد هل يصلي ويسجد أمامكم ـ قالوا : نعم ، فقال : واللاَّت والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأنَّ على رقبته ، ولأعفرنَّ وجهه في التراب ، فجاء يوماً فوجد رسول الله ﷺ يصلي ، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته ، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقيل له: ما لك ؟ فقال : إن بيني وبينه خندقاً من نار ، وهولاً وأجنحة فقال رسول الله ﷺ : (لو دنا مني لاختطفته الملائكةُ عضواً عضواً) فأنزل الله ﴿أرأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلى . . ﴾ إلى آخر السورة[3] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلَق﴾ هذا أول خطاب إلهي وجه إلى النبي ﷺ وفيه دعوةٌ إلى القراءة والكتابة والعلم ، لأنه شعار دين الإسلام أي إقرأ يا محمد القرآن مبتدئاً ومستعيناً باسم ربك الجليل ، الذي خلق جميع المخلوقات ، وأوجد جميع العوالم ، ثم فسَّر الخلق تفخيماً لشأن الإنسان فقال ﴿خلقَ الإنسان من علق﴾ أي خلق هذا الإنسان البديع الشكل ، الذي هو أشرف المخلوقات من العلقة ـ وهي الدودة الصغيرة ـ وقد أثبت الطبُّ الحديث أن المنيَّ الذي خلق منه الإنسان محتوٍ على حيواناتٍ

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٩١ . (٢) روح المعاني ٣٠/ ١٨٨ . (٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ، وانظر مختصر ابن كثير ٣/ ٦٥٨ والخازن ٤/ ٢٧٠ .

ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا

وديدان صغيرة لا تُرى بالعين ، وإنما ترى بالمجهر الدقيق ـ الميكرسكوب ـ وأن لها رأساً وذنباً ، فتبارك الله أحسن الخالقين[1] قال القرطبي : خصَّ الإنسان بالذكر تشريفاً له ، والعلقةُ قطعة من دم رطب ، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمرُّ عليه[2] ﴿إقرأ وربك الأكرم﴾ أي اقرأ يا محمد وربك العظيم الكريم ، الذي لا يساويه ولا يدانيه كريم ، وقد دلَّ على كمال كرمه أنه علَّم العباد ما لم يعلموا ﴿الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعْلم﴾ أي الذي علَّم الخطَّ والكتابة بالقلم ، وعلَّم البشر ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف ، فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فكما علَّم سبحانه بواسطة الكتابة بالقلم ، فإنه يعلمك بلا واسطة وإن كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب قال القرطبي : نبَّه تعالى على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسان ، وما دُونت العلوم ولا قُيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتبُ الله المنزَّلة إلا بالكتابة ، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين[3] . . وهذه الآيات الخمس هي أول ما تنزَّل من القرآن ، كما ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ نزل عليه الملك وهو يتعبَّد بغار حراء ، فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء[4] . . الخ قال ابن كثير: أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات المباركات ، وهنَّ أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرَّمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به « آدم » على الملائكة[5] . . ثم أخبر تعالى عن سبب بطر الإنسان وطغيانه فقال ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز الحد في الطغيان ، واتباع هوى النفس ، ويستكبر على ربه عز وجل ﴿أن رآه استغنى﴾ أي من أجل أن رأى نفسه غنياً ، وأصبح ذا ثروة ومال أشر وبطر ، ثم توعَّده وتهدده بقوله ﴿إنَّ إلى ربك الرُّجعى﴾ أي إنَّ إلى ربك ـ أيها الإنسانُ ـ المرجعُ والمصير فيجازيك على أعمالك ، وفي الآية تهديدٌ وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان ، ثم هو عام لكل طاغٍ متكبر قال المفسرون : نزلت هذه الآيات إلى آخر السورة في « أبي جهل » بعد نزول صدر السورة بمدة طويلة ، وذلك أن أبا جهل كان يطغى بكثرة ماله ، ويبالغ في عداوة الرسول ﷺ والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[6] ﴿أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلَّى﴾ تعجيبٌ من حال ذلك الشقي الفاجر أي أخبرني يا محمد عن حال ذلك المجرم الأثيم ، الذي ينهى عبداً من عباد الله عن الصلاة ، ما أسخف عقله ، وما أشنع فعله ! ! قال أبو السعود : هذه الآية تقبيحٌ وتشنيعٌ لحال الطاغي وتعجيب منها ، وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يقضى منها العجب[7] ، وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلي هو محمد

---

(١) إقرأ كتاب « الطب محرابُ الايمان » ج ٢ ص ٥٣ . (٢) تفسير القرطبي ١٩/ ١١٩ .

(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٠ . (٤) أخرج الشيخان عن عائشة قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث ـ أي يتعبد ـ فيه الليالي ذوات العدد . . » الحديث .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٦ . (٦) انظر حاشية الصاوي ٤/ ٣٣٦ وتفسير القرطبي ١٩/ ١٢٣ . (٧) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧٤ .

صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ۩

ﷺ ، وأن الذي نهاه هو اللعين « أبو جهل » حيث قال : لئن رأيتُ محمداً يصلي لأطأن على عنقه[1] ﴿أرأيتَ إنْ كان على الهُدى﴾ أي أخبرني إن كان هذا العبد المصلي - وهو النبي ﷺ - الذي تنهاه عن الصلاة صالحاً مهتدياً ، على الطريقة المستقيمة في قوله وفعله ! ! ﴿أوْ أمر بالتقوى﴾ أي أو كان آمراً بالإخلاص والتوحيد ، داعياً إلى الهدى والرشاد ، كيف تزجره وتنهاه[2] ! ! فما أبلهك أيها الغبي الذي تنهي من هذه أوصافه : عبدٌ لله مطيعٌ مهتدٍ منيب ، داعٍ إلى الهدى والرشاد ؟ ! وما أعجب هذا ؟ ! ثم عاد لخطاب الرسول ﷺ فقال ﴿أرأيتَ إنْ كذَّب وتولَّى﴾ أي أخبرني يا محمد إن كذَّب بالقرآن ، وأعرض عن الإيمان ﴿ألم يعلم بأنَّ الله يرى﴾ أي ألم يعلم ذلك الشقي أن الله مطَّلع على أحواله ، مراقب لأفعاله ، وسيجازيه عليها ! ! ويله ما أجهله وأغباه ؟ ! ثم ردعه وزجره فقال ﴿كلاَّ لئن لم ينتهِ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر « أبو جهل » عن غيه وضلاله ، فوالله لئن لم ينته عن أذى الرسول ، ويكف عمَّا هو عليه من الكفر والضلال ﴿لنسفعاً بالناصية﴾ أي لنأخذنه بناصيته - مقدم شعر الرأس - فلنجرنه إلى النار بعنفٍ وشدة ونقذفه فيها ﴿ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة﴾ أي صاحب هذه الناصية كاذبٌ ، فاجرٌ ، كثير الذنوب والإجرام قال في التسهيل : ووصفها بالكذب والخطيئة مجازٌ ، والكاذب الخاطىء في الحقيقة صاحبها ، والخاطىء الذي يفعل الذنب متعمداً ، والمخطىء الذي يفعله بدون قصد[3] ﴿فليدعُ ناديه﴾ أي فليدع أهل ناديه وليستنصر بهم ﴿سندعُ الزَّبانية﴾ أي سندعوا خزنة جهنم ، الملائكة الغلاظ الشداد ، روي أن أبا جهل مرَّ على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال : ألم أنهك عن هذا يا محمد ! فأغلظ له رسول الله ﷺ القول ، فقال أبو جهل : بأي شيء تهددني يا محمد ! والله إني لأكثر أهل الوادي هذا نادياً فأنزل الله ﴿فليدع ناديَه * سندع الزبانية﴾ قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته[4] ﴿كلاَّ لا تطعه﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر ، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿واسجد واقْترب﴾ أي وواظب على سجودك وصلاتك ، وتقرَّب بذلك إلى ربك وفي الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[5] .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿اقرأ باسم ربك . . ثم قال : اقرأ وربك الأكرم﴾ لمزيد الاهتمام بشأن

(١) انظر سبب النزول المتقدم . (٢) هذا هو الظاهر أن الذي هو على الهدى ، أو أمر بالتقوى هو محمد ﷺ ، وهو اختيار ابن عطية والجمهور ، وذهب الزمخشري إلى أنها في الناهي ، وهو ضعيف .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٠٩/٤ . (٤) تفسير القرطبي ١٢٧/١٩ . (٥) رواه مسلم في صحيحه .

القراءة والعلم .

٢ ـ الجناس الناقص بين ﴿خلق﴾ و﴿علق﴾ .

٣ ـ طباق السلب ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ .

٤ ـ الكناية ﴿أرأيت الذي ينهى عَبداً﴾ كنَّى بالعبد عن رسول الله ﷺ ولم يقل : ينهـاك تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقدره .

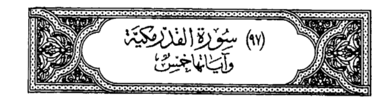
٥ ـ الاستفهام للتعجيب من شأن الناهي ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ ؟ ﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ ؟

٦ ـ المجاز العقلي ﴿ناصيةٍ كاذبة خاطئة﴾ أي كاذب صاحبها خاطىء فأسند الكذب إليها مجازاً .

٧ ـ السجع المرصَّع مثل ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من عَلق﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العلق »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة القدر مكية ، وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم ، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور ، لما فيها من الأنوار والتجليات القدسية ، والنفحات الربانية ، التي يفيضها الباري جل وعلا على عباده المؤمنين ، تكريماً لنزول القرآن المبين ، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأبرار حتى طلوع الفجر ، فيا لها من ليلةٍ عظيمة القدر ، هي خير عند الله من ألف شهر ! !

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾

التفسير : ﴿إنـا أنزلنـاه في ليلـة القـدر﴾ أي نحن أنزلنا هذا القرآن المعجز في ليلـة القـدر

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝﴾

والشرف قال المفسرون : سميت ليلة القدر لعظمها وقدرها وشرفها ، والمرادُ بإنزال القرآن إنزالهُ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل إلى الأرض في مدة ثلاث وعشرين سنة كما قال ابن عباس : أنزل الله القرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله[1] ﷺ ﴿وما أدراك ما ليلةُ القدر﴾ تعظيمٌ وتفخيمٌ لأمرها أي وما أعلمك يا محمد ما ليلةُ القدر والشرف ؟ قال الخازن : وهذا على سبيل التعظيم لها والتشويق لخبرها كأنه قال : أي شيء يبلغ علمك بقدرها ومبلغ فضلها ؟ ![2] ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه فقال تعالى ﴿ليلةُ القدر خير من ألف شهر﴾ أي ليلة القدر في الشرف والفضل خيرٌ من ألف شهر ، لما اختصت به من شرف إنزال القرآن الكريم فيها قال المفسرون : العمل الصالح في ليلة القدر خيرٌ من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وقد روي أن رجلاً لبس السلاح وجاهد في سبيل الله ألف شهر ، فعجب رسول الله والمسلمون من ذلك ، وتمنى رسول الله ﷺ لأُمته فقال يا رب : جعلت أُمتي أقصر الأمم أعماراً ، وأقلها أعمالاً ! ! فأعطاه الله ليلة القدر ، وقال : ليلةُ القدر خيرٌ لك ولأمتك من ألف شهر ، جاهد فيها ذلك الرجل[3] قال مجاهد : عملها وصيامها وقيامها خيرٌ من ألف شهر[4] ، هذا هو الوجه الأول من فضلها ثم قال تعالى ﴿تنزَّل الملائكةُ والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ أي تنزل الملائكةُ وجبريل إلى الأرض في تلك الليلة بأمر ربهم من أجل كل أمرٍ قدَّره الله وقضاه لتلك السنة إلى السنة القابلة ، وهذا هو الوجه الثاني من فضلها ، والوجه الثالث قوله تعالى ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ أي هي سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر ، تسلّم فيها الملائكة على المؤمنين ، ولا يُقدّر الله فيها إلا الخير والسلامة لبني الإنسان .

البَــلاغَــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإطناب بذكر ليلة القدر ثلاث مرات ، زيادة في الاعتناء بشأنها ، وتفخيماً لأمرها .

٢ ـ الاستفهام بغرض التفخيم والتعظيم ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ ؟

٣ ـ ذكر الخاص بعد العام ﴿تنزل الملائكةُ والروحُ﴾ فذكر جبريل بعد الملائكة لينبه على جلالة قدره .

٤ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿القدر ، شهر ، أمر ، الفجر﴾ وهو من المحسنات البديعية اللفظية والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القدر »

(١) انظر مختصر ابن كثير ٣/ ٦٥٩ و القرطبي ١٩/ ١٣٠ . (٥) تفسير الخازن ٤/ ٢٧٥

(٣) روي هذا عن ابن عباسٍ ومجاهد . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٩ .



بين يدي السورة

* سورة البيّنة وتسمى ﴿سورة لم يكن﴾ مدنية ، وهي تعالج القضايا الآتية :

١ ـ موقف أهل الكتاب من رسالة محمد ﷺ .

٢ ـ موضوع إخلاص العبادة لله جلّ وعلا .

٣ ـ مصير كل من السعداء والأشقياء في الآخرة .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن « اليهود والنصارى » وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ ، بعد أن بان لهم الحقُّ وسطعت أنواره ، وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان ، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه ، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته ، وكفروا وعاندوا .

* ثم تحدثت السورة عن عنصر هام من عناصر الإيمان ، وهو « إخلاص العبادة » لله العلي الكبير ، الذي أُمر به جميع أهل الأديان ، وإفراده جلَّ وعلا بالذكر ، والقصد ، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال ، خالصة لوجهه الكريم .

* كما تحدثت عن مصير أهل الإجرام ـ شرِّ البرية ـ من كفرة أهل الكتاب والمشركين ، وخلودهم في نار الجحيم ، وعن مصير المؤمنين ، أصحاب المنازل العالية ـ خير البرية ـ وخلودهم في جنات النعيم ، مع النبيّين ، والصدّيقين ، والشهداء ، والصالحين ، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لرب العالمين .

* * *

اللغة : ﴿منفكين﴾ منتهين زائلين ، وأصلُ الفك : الفتحُ ومنه فكُّ الكتاب ، وفكُّ الخلخال ﴿البيّنة﴾ الحجة الواضحة ، والدلالة القاطعة ﴿مطهَّرة﴾ منزهة عن الباطل والشبهات ﴿قيّمة﴾ مستقيمة عادلة ﴿حنفاء﴾ مائلين عن الباطل إلى الدين الحق ، وأصل الحنف : الميلُ ﴿البرية﴾ الخلق من قولهم : برأ اللهُ الخلق ، ومنه البارىء أي الخالق .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

التفسير : ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ أي لم يكن أهل الكفر والجحود ، الذين كفروا بالله وبرسوله ، ثم بيَّنهم بقوله ﴿منْ أهلِ الكتاب والمُشركين﴾ أي من اليهود والنصارى أهل الكتاب ، ومن المشركين عبدة الأوثان والأصنام ﴿مُنفكين حتَّى تأتيهم البيّنة﴾ أي منفصلين ومنتهين عما هم عليه من الكفر ، حتى تأتيهم الحجة الواضحة[1] ، وهي بعثة محمد ﷺ ولهذ فسَّرها بقوله ﴿ رسولٌ منَ الله﴾ أي هذه البيّنة هي رسالة محمد ﷺ المرسل من عند الله تعالى ﴿يتلوا صحفاً مطهَّرة﴾ أي يقرأ عليهم صحفاً منزَّهة عن الباطل عن ظهر قلب ، لأن النبي ﷺ أميٌ لا يقرأ ولا يكتب قال القرطبي : أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب ، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب ، لأنه عليه السلام كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ[2] قال ابن عباس : ﴿مطهَّرة﴾ من الزور ، والشك ، والنفاق ، والضلالة وقال قتادة : مطهَّرة عن الباطل[3] ﴿فيها كتبٌ قيِّمة ﴾ أي فيها أحكام قيمة لا عوج فيها ، تبيّن الحق من الباطل قال الصاوي : المراد بالصحف القراطيس التي يكتب فيها القرآن ، والمراد بالكتب الأحكام المكتوبة فيها ، وإنما قال ﴿فيها كتبٌ قيمة﴾ لأن القرآن جمع ثمرة كتب الله المتقدمة[4] . . ثم ذكر تعالى من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال ﴿وما تفرَّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيّنة﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، الدالة على صدق رسالته ، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم قال أبو السعود : والآية مسوقةٌ لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة ، وتغليظ جناياتهم ، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق ، وتبيّن الحال ، وانقطاع الأعذار بالكلية ، كقوله تعالى ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾[5] وقال في التسهيل : أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا أنه حق ، وإنما خصَّ أهل الكتاب هنا بالذكر ، لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته ، بما يجدون في كتبهم من ذكره[6] ﴿ وما

---

(١) لم تذكر السورة أنهم منفكون عن ماذا ؟ لكنه معلومٌ إذ المراد هو الكفر والضلالة التي كانوا عليها ، فقد أتاهم رسول الله ﷺ بالقرآن المبين ، فبيّن لهم ضلالتهم وشركهم وما كانوا عليه من الجاهلية ، ودعاهم إلى الإيمان فآمن منهم من آمن ، واهتدى منهم من اهتدى ، فأنقذهم الله من الجهالة والضلالة ، ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثه ﷺ إليهم ، والآية فيمن آمن من الفريقين : المشركين وأهل الكتاب . (٢) تفسير القرطبي ٢٩/ ١٤٢ . (٣) نفس المرجع السابق والصفحة . (٤) حاشية الصاوي ٤/ ٣٤٢ .
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧٧ . (٦) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢١٢ .

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾

أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين لهُ الدين﴾ أي والحال أنهم ما أُمروا في التوراة والإنجيل إلا بأن يعبدوا الله وحده ، مخلصين العبادة لله جلّ وعلا ، ولكنهم حرَّفوا وبدَّلوا ، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دونِ الله والمسيحَ بن مريم ، وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ ﴿حنفاء﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، مستقيمين على دين إبراهيم ، دين الحنيفية السمحة ، الذي جاء به خاتم المرسلين ﴿ويقيموا الصَّلاة ويُؤتوا الزَّكاة﴾ أي وأُمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل ، في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها ، ويعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس قال الصاوي : وخصَّ الصلاة والزكاة لشرفهما[1] ﴿وذلك دينُ القيِّمة﴾ أي وذلك المذكور من العبادة والإخلاص ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو دين الملة المستقيمة ـ دين الإسلام ـ فلماذا لا يدخلون فيه ؟ ثم ذكر تعالى مآل كل من الأبرار والأشرار ، في دار الجزاء والقرار فقال ﴿إنَّ الذين كفروا من أهلِ الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها﴾ أي إنَّ الذين كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد عليه السلام ، من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان ، هؤلاء جميعهم يوم القيامة في نار جهنم ، ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿أُولئك هم شرُّ البريـة﴾ أي أولئك هم شر الخلق على الإطلاق قال الامام الفخر : فإن قيل : لم ذكر ﴿كفروا﴾ بلفظ الفعل ، ﴿والمشركين﴾ باسم الفاعل ؟ فالجواب تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر ، لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل ، ومقرين بمبعث محمد ﷺ ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام ، بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان ، وإنكار الحشر والقيامة ، وقوله ﴿أولئك هم شر البرية﴾ لإفادة الحصر أي شرٌّ من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ وشرٌّ من قطاع الطريق ، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق[2] ، ولما ذكر مقر الأشقياء ، ذكر بعده مقر السعداء فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿أُولئك هم خير البريـة﴾ أي هم خير الخليقة التي خلقها الله وبرأها ﴿جزاؤهم عند ربهم﴾ أي ثوابهم في الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿جنات عدن تجري من تحتها الأنهار﴾ أي جنات إقامة تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين فيها ابداً ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وهم في نعيم دائم لا ينقطع ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ أي رضي الله عنهم بما قدموا في الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات ، ورضوا عنه بما أعطاهم من

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٤٣ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٣١/ ٤٩ .

ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

الخيرات والكرامات ﴿ذلـك لمـن خشـي ربـه﴾ أي ذلك الجزاء والثواب الحسن لمن خاف الله واتقاه ، وانتهى عن معصية مولاه .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإجمال ثم التفصيل ﴿حتى تأتيهم البينة﴾ ثم فصلها بقوله ﴿رسولٌ من اللـه يتلـو صحفـاً مطهرة﴾ .

٢ ـ الطباق بين ﴿خير البرية﴾ و﴿شر البرية﴾.

٣ ـ الاستعارة التصريحية ﴿يتلو صحفاً مطهَّرة﴾ لفظة مطهرة فيها استعارة حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الانجاس .

٤ ـ المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب . .﴾ الآية وبين ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الآية .

٥ ـ توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿البيِّنة ، القيِّمة ، خير البرية ، شر البرية﴾ ونحو ذلك .

تـنبيـه : الإخلاص هو لبُّ العبادة وقد جاء في الحديث القدسي : (أنـا أغنـى الأغنياء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه) وقد قسم العلماء الأعمال الى ثلاثة أقسـام : « مأمورات ، ومنهيات ومباحات » فأما المأمورات فالإخلاص فيها بأن يقصد بعمله وجه الله ، وإن كانت النية لغير وجه الله ، فالعمل رياء محض مردود ، وأما المنهيات فإن تركها بدون نية خرج عن عهدتها ، ولم يكن له أجر في تركها ، وإن تركها ابتغاء وجه الله كان مأجوراً على تزكها ، وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك ، فإن فعلها بغير نية لم يكن بها أجر ، وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر ، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله ، مثل أن يقصـد بالأكل القوة على العبادة ، ويقصد بالجماع التعفُّف عن الحرام .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البيِّنة »

* * *



(٩٩) سورة الزلزلة مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة الزلزلة مدنية ، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية ، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة ، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، حيث يندك كل صرح شامخ ، وينهار كل جبل راسخ ، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان ، كإخراج الأرض ما فيها من موتى ، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهب وفضة ، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها تقول : عملت يوم كذا ، كذا وكذا ، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب ، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار ، وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد .

* * *

اللغــــة : ﴿زلزلت﴾ حركت تحريكاً عنيفاً ﴿أثقالها﴾ الموتى الذين في جوفها ، جمع ثقل وهو الشيء الثقيل ومنه ﴿وتحمل أثقالكم﴾ قال الأخفش : إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإن كان فوقها فهو ثقل عليها[1] ﴿يصدر﴾ ينصرف ويخرج ، والصدور ضد الورود ، فالوارد الآتي ، والصادر المنصرف ﴿أشتاتاً﴾ متفرقين جمع شت يقال : ذهبوا أشتاتاً أي متفرقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

التفسيــر : ﴿إذا زُلزلت الأرض زلزالها﴾ أي إذا حركت الأرض تحريكاً عنيفاً ، واضطربت اضطراباً شديداً ، واهتزت بمن عليها اهتزازاً يقطع القلوب ويُفزع الألباب كقوله تعالى ﴿اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم﴾ قال المفسرون : إنما أضاف الزلزلة إليها ﴿زلزالها﴾ تهويلاً كأنه يقول : الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها ، وذلك عند قيام الساعة تتزلزل وتتحرك تحريكاً متتابعاً ، وتضطرب

(١) التفسير الكبير ٣١/٥٨ .

وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

بمن عليها ، ولا تسكن حتى تلقي ما على ظهرها من جبل وشجر وبناءٍ وقلاع[1] ﴿وأخرجت الأرضُ أثقالها﴾ أي وأخرجت الأرض ما في بطنها من الكنوز والموتى قال ابن عباس : أخرجت موتاها وقال منذر ابن سعيد: أخرجت كنوزها وموتاها[2] وفي الحديث (تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلتُ ، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعتُ رحمي ، ويجيء السارقُ فيقول في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً)[3] ﴿وقال الإنسانُ ما لها﴾ ؟ أي وقال الإنسان : ما للأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة ، ولفظت ما في بطنها ؟ ! يقول ذلك دهشة وتعجباً من تلك الحالة الفظيعة ﴿يومئذٍ تحدِّث أخبارها﴾ أي في ذلك اليوم العصيب ـ يوم القيامة ـ تتحدث الأرض وتخبر بما عُمل عليها من خير أو شر ، وتشهد على كل إنسان بما صنع على ظهرها ، عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿يومئذٍ تُحدث أخبارها﴾ فقال : (أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : اللهُ ورسولهُ أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا ، كذا وكذا ، فهذه أخبارها)[4] وفي الحديث (تحفَّظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحدٍ عاملٍ عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة به)[5] ﴿بأنَّ ربك أوحى لها﴾ أي ذلك الإخبار بسبب أن الله جلت عظمته أمرها بذلك ، وأذن لها أن تنطق بكل ما حدث وجرى عليها ، فهي تشكو العاصي وتشهد عليه ، وتشكر المطيع وتثني عليه ، والله على كل شيء قدير ﴿يومئذٍ يصدر الناسُ أشتاتاً﴾ أي في ذلك اليوم يرجع الخلائق من موقف الحساب ، وينصرفون متفرقين فرقاً فرقاً ، فآخذٌ ذات اليمين إلى الجنة ، وآخذٌ ذات الشمال إلى النار ﴿ليُروا أعمالهم﴾ أي لينالوا جزاء أعمالهم من خير أو شر ﴿فمَنْ يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره﴾ أي فمن يفعل من الخير زنة ذرةٍ من التراب ، يجده في صحيفته يوم القيامة ويلق جزاءه عليه قال الكلبي : الذرةُ أصغرُ النمل وقال ابن عباس : إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها ، فكلٌّ واحد مما لصق به من التراب ذرة[6] ﴿ومَنْ يعملْ مثقال ذرةٍ شراً يره﴾ أي ومن يفعل من الشر زنة ذرةٍ من التراب ، يجده كذلك ويلق جزاءه عليه قال القرطبي : وهذا مثل ضربه الله تعالى في أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة ، وهو مثل قوله تعالى ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾[7] .

البَـلاَغـَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإضافة للتهويل والتفظيع ﴿زلزالها﴾ .

---

(١) انظر التسهيل ٤/ ٢١٣ والخازن ٤/ ٢٨٠ . (٢) تفسير الألوسي ٣٠/ ٢٠٩ . (٣) أخرجه مسلم في صحيحه . (٤) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح . (٥) أخرجه الطبراني في معجمه . (٦) التفسير الكبير ٣١/ ٦١ . (٧) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٥٠ .

٢ ـ الإظهار في مقام الإضمار ﴿وأخرجت الأرض﴾ لزيادة التقرير والتوكيد .

٣ ـ الاستفهام للتعجب والاستغراب ﴿وقال الإنسان ما لها﴾ ؟

٤ ـ جناس الاشتقاق ﴿زلزلت . . زلزالها﴾ .

٥ ـ المقابلة بين ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً . .﴾ وبين ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شراً . .﴾ .

٦ ـ السجع المرصَّع كأنه الذهب السبيك أو الدر والياقوت مثل ﴿زلزالها ، أثقالها ، أوحى لها ، أخبارها ، ما لها﴾ وهو من المحسنات البديعية .

فَائِدَة : سمَّى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فمن يعمل مثقال ذرة . .﴾ الجامعة الفاذَّة حين سئل عن زكاة الحُمر فقال : ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ أخرجه البخاري .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة العاديات مكية ، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله ، حين تغير على الأعداء ، فيسمع لها عند عَدْوِها بسرعة صوتٌ شديد ، وتقدح بحوافرها الحجارة فيتطاير منها النار ، وتثير التراب والغبار ، وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغُزاة ـ إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله ـ على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه ، جحودٌ لآلائه وفيوض نعمائه ، وهو معلن لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله ، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان وحبه الشديد للمال ، وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء ، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه ، وإنما ينفع العمل الصالح .

* * *

اللغــة : ﴿ضبْحاً﴾ الضبح : صوت أنفاس الخيل إذا عدت قال عنترة : والخيلُ تكدح حين تضبح في حياض الموت ضبحاً[1] ﴿أثرن﴾ هيَّجن ﴿نقعاً﴾ النقعُ : الغبار ﴿كنود﴾ كفور جحود لنعمة الله من كند النعمة إذا كفرها ولم يشكرها قال الشاعر :

كنـودٌ لنعمـاء الرجـال ومـن يكن كنـوداً لنعمـاء الرجـالِ يبعَّد[2]

﴿بعثر﴾ أثير وقلب من بعثرت المتاع إذا جعلت أسفله أعلاه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴿١١﴾

التفسـير : ﴿والعاديـات ضبْحـاً﴾ أي أُقسمُ بخيل المجاهدين المسرِعات في الكرّ على العدو ، يُسمع لأنفاسها صوتٌ جهير هو الضبحُ قال ابن عباس : الخيل إذا عدت قالت : أحْ ، أحْ فذلك ضبحها قال أبو السعود : أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وتضبح ضبحاً وهو صوت أنفاسها عند عدوها[3] ﴿فالموريـات قدْحـاً﴾ أي فالخيل التي تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة من شدة الجري ﴿فالمغيـراتِ صُبحـاً﴾ أي فالخيل التي تغير على العدو وقت الصباح قبل طلوع الشمس قال الألوسي : هذا هو المعتادُ في الغارات ، كانوا يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ، ويهجمون صباحاً ليروا ما يأتون وما يذرون[4] ﴿فأثـرنَ بـه نقعـاً﴾ أي فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العـدو ، في الموضع الذي أغـرن به ﴿فوسطْـنَ بـه جمعـاً﴾ أي فتوسطـن به جمـوع الأعـداء ، وأصبحـن وسط المعركة . . أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة ، تعظيماً للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله ، التي تسرع على أعداء الله ، وتقدح النار بحوافرها ، وتُغير على الأعداء وقت الصباح ، فتثير الغبار ، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفزع ، أما الأمور التي أقسم عليها فهي قوله ﴿إنَّ الإنسـان لربـه لكـنود﴾ أي إن الإنسان لجاحد لنعم ربه ، شديد الكفران قال ابن عباس : جاحدٌ لنعم الله وقال الحسن : يذكر المصائب وينسى النعم[5] ﴿وإنـه على ذلـك لشهـيد﴾ أي وإن الإنسان لشاهد على كنوده ، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه ﴿وإنـه لحـب الخيـر لشديـد﴾ أي وإنه لشديد الحب للمال حريصٌ على جمعه ، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيفٌ متقاعس . . ثم بعد أن عدَّد عليه قبائح أفعاله خوَّفه فقال ﴿أفـلا يعلـم إذا بُعثـر ما فـي القبـور﴾ أي أفلا يعلم هذا الجاهل إذا أثير ما في القبور وأُخرج ما فيها من

(١) الألوسي ٣٠/ ٢١٥ . (٢) القرطبي ٢٠/ ١٦٠ . (٣) أبو السعود ٥/ ٢٨٠ . (٤) روح المعاني ٣٠/ ٢١٥ . (٥) القرطبي ٢٠/ ١٦٠ .

الأموات ﴿وحُصِّل ما في الصُّدور﴾ أي وجمع وأبرز ما في الصدور من الأسرار والخفايا التي كانوا يسرونها ﴿إنَّ ربَّهم بهم يومئذٍ لخبير﴾ أي إنَّ ربهم لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، وإنما خص علمه بهم في ذلك اليوم - يوم القيامة - لأنه يوم الجزاء ، بقصد الوعيد والتهديد ، فهو تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره .

البَلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - التأكيد بإنَّ واللام في مواضع مثل ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ ﴿إن ربهم بهم يومئذٍ لخبير﴾ زيادة في التقرير والبيان .

٢ - الجناس غير التام بين ﴿لشهيد﴾ و ﴿لشديد﴾ وكذلك ﴿ضبحاً﴾ و ﴿صبحاً﴾ .

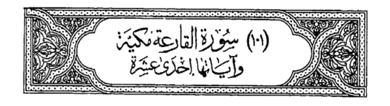
٣ - الاستفهام الإنكاري للتهديد والوعيد ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ ؟

٤ - التضمين ﴿إن ربهم بهم يومئذٍ لخبير﴾ ضمَّن لفظ ﴿خبير﴾ معنى المجازاة أي يجازيهم على أعمالهم .

٥ - توافق الفواصل مثل ﴿شهيد ، شديد﴾ و ﴿الصدور ، القبور﴾ الخ . ويسمى « السجع المرصَّع » وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

❋ سورة القارعة مكية ، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها ، والآخرة وشدائدها ، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام ، كخروج الناس من القبور ، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير ، المنتشر هنا وهناك ، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم .

* كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنبث المتطاير في الهواء ، بعد أن كانت صلبةً راسخة فوق الأرض ، وقد قرنت بين الناس والجبال تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالصوف المندوف ، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب ؟

* وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس ، وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها ، وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها .

* * *

اللغــة : ﴿القارعة﴾ اسم من أسماء القيامة ، سميت بها لأنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها ، وأصلُ القرع الضرب بشدة وقوة ، تقول العرب : قرعتهم القارعة وفقَرتهم الفاقرة ، إذا وقع بهم أمر فظيع ﴿المبثوث﴾ المنتشر المتفرق ﴿العهن﴾ الصوف ذو الألوان أو المصبوغ ﴿الهاوية﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأنَّ الناس يهْوون بها أي يسقطون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

التفسيـر : ﴿القارعةُ ما القارعة﴾ أي القيامة وأيُّ شيء هي القيامة ؟ إنها في الفظاعة والفخامة بحيث لا يدركها خيال ، ولا يبلغها وهمُ انسان فهي أعظم من أن توصف أو تصوَّر ، ثم زاد في التفخيم والتهويل لشأنها فقال ﴿وما أدراك ما القارعةُ﴾ ؟ أي أيُّ شيء أعلمك ما شأن القارعة في هولها على النفوس ؟ إنها لا تُفزع القلوب فحسب ، بل تؤثّر في الاجرام العظيمة ، فتؤثر في السموات بالإنشقاق ، وفي الأرض بالزلزلة ، وفي الجبال بالدكّ والنسف ، وفي الكواكب بالانتثار ، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار إلى غير ما هنالك قال أبو السعود : سميت القيامة قارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع ، ووضع الظاهر موضع الضمير ﴿ما القارعة﴾ تأكيداً للتهويل ، والمعنى أيُّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة ، ثم أكد هولها وفظاعتها بقوله ﴿وما أدراك ما القارعةُ﴾ ؟ ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق ، بحيث لا تكاد تنالها دراية أحد[1] . . وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شيءٍ من أحوالها ، جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى ﴿يوم يكونُ النَّاس كالفراش المبثوث﴾ أي ذلك يحدث عندما يخرج الناسُ من قبورهم فزعين ، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك ، يموج بعضهم في بعض من شدة الفزع والحيرة قال الرازي : شبه تعالى الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث ، وفي آية أُخرى بالجراد المنتشر ، أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأن الفراش إذا ثار لم

(١) أبو السعود ٥/ ٢٨١ .

وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

يتجه إلى جهةٍ واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدلَّ على أنهم إذا بُعثوا فزعوا ، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة ، يصبحون كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضاً ، فكذلك الناس إذا بُعثوا يموج بعضُهم في بعض كالجراد والفراش كقوله تعالى ﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض﴾[1] ﴿وتكونُ الجبال كالعِهن المنفوش﴾ هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المهول أي وتصير الجبال كالصوف المنتشر المتطاير ، تتفرق أجزاؤها وتتطاير في الجو ، حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندف قال الصاوي : وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال ، تنبيهاً على أن تلك القارعة أثَّرت في الجبال العظيمة الصلبة ، حتى تصير كالصوف المندوف مع كونها غير مكلفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب[2] ! ثم ذكر تعالى حالة الناس في ذلك اليوم ، وانقسامهم إلى شقي وسعيد فقال ﴿فأمَّا من ثقلت موازينُه﴾ أي رجحت موازين حسناته ، وزادت حسناتُه على سيئاته ﴿فهو في عيشةٍ راضية﴾ أي فهو في عيش هنيءٍ رغيد سعيد ، في جنان الخلد والنعيم ﴿وأمَّا مَنْ خفَّتْ موازينُه﴾ أي نقصت حسناته عن سيئاته ،أولم يكن له حسناتٌ يُعتدُّ بها ﴿فأُمه هاوية﴾ أي فمسكنه ومصيره نار جهنم يهوي في قعرها ، سمَّاها أماً لأن الأم مأوى الولد ومفزعه ، فنار جهنم تؤوي هؤلاء المجرمين ، كما يأوي الأولاد إلى أمهم ، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولادَ إليها قال أبو السعود : ﴿هاوية﴾ اسم من أسماء النار ، سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها ، روي أن أهل النار يهوون فيها سبعين خريفاً[3] ﴿وما أدراك ماهيه﴾ ؟ استفهام للتفخيم والتهويل أي وما أعلمك ما الهاوية ؟ ثم فسَّرها بقوله ﴿نارٌ حامية﴾ أي هي نار شديدة الحرارة ، قد خرجت عن الحد المعهود ، فإن حرارة أي نارٍ إذا سُعرت وأُلقي فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم ، أجارنا الله منها بفضله وكرمه .

البَلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام للتفخيم والتهويل ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ ؟ ﴿وما أدراك ماهيه﴾ ؟

٢ ـ وضع الظاهر مكان الضمير للتخويف والتهويل ﴿القارعة * ما القارعة﴾ ؟ والأصل أن يقال : القارعة ما هي ؟

٣ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه أي في الكثرة والانتشار ، والضعف والذلة ، ومثله ﴿كالعهن المنفوش﴾ أي في تطايرها وخفة سيرها فيسمى مرسلاً مجملاً .

(١) التفسير الكبير ٣١/٧٢ . (٢) حاشية الصاوي ٤/٣٤٧ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/٢٨٢ ، ونقل عن قتادة أن المراد بقوله ﴿فأمه هاوية﴾ أي فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوساً ، والأول أظهر .

٤ ـ المقابلة ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشةٍ راضية﴾ ثم قابلها بقوله ﴿وأما من خفت موازينه فأُمه هاوية﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٥ ـ المجاز العقلي ﴿فهو في عيشةٍ راضية﴾ أي راضٍ بها صاحبها ففيه اسناد مجازي .

٦ ـ الاحتباك وهو أن يحذف من كل نظير ما أثبته في الآخر فقوله تعالى ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشةٍ راضية * وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾ حذف من الأول ﴿فأمه الجنة﴾ وذكر فيها ﴿عيشة راضية﴾ وحذف من الآية الثانية ﴿فهو في عيشة ساخطة﴾ وذكر ﴿فأمه هاوية﴾ فحذف من كلٍ نظير ما أثبته في الآخر ، وهو من المحسنات البديعية كذلك .

٧ ـ توافق الفواصل في الحرف الأخير ، وهو واضح في السورة الكريمة .

تـنـبيـه : الجمهور على أن الميزان حقيقي له كفتان ولسان ، توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات ، وروي عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة ، وبالأعمال السيئة على صور قبيحة ، فتوضع في الميزان ، فمن رجحت حسناته سعد ، ومن رجحت سيئاته شقي ، والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة التكاثر مكية ، وهي تتحدث عن انشغال الناس بمغريات الحياة ، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا ، حتى يقطع الموت عليهم متعتهم ، ويأتيهم فجأة وبغتة ، فينقلهم من القصور إلى القبور .

الموتُ يأتي بغتةً والقبرُ صندوقُ العمل

* وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفاً للناس ، وتنبيهاً لهم على خطئهم ، باشتغالهم بالفانية عن الباقية ﴿كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون﴾ .

✽ وختمت السورة الكريمة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة ، والتي لا يجوزها ولا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدَّم صالح الأعمال .

* * *

اللغــة : ﴿ألهاكـم﴾ الإلهاء : الشغل والانصراف عن الشيء الهام إلى ما يدعو إليه الهوى ، وأصل اللهو الغفلةُ ثم شاع في كل شاغل قال الراغب : اللهو ما يشغلك عما يعني ويهمُّ ﴿التكاثر﴾ التباهي بكثرة المال والجاه وهو بمعنى المكاثرة ﴿المقابر﴾ القبور جمع مقبرة ، والقبور جمع القبر قال الشاعر :

أرى أهـل القُصـور إذا أُميتـوا بَنَـوْا فوق المقابـر بالصخور
أبـوا إلاّ مبـاهـاةً وفخـراً على الفقـراء حتى في القبـور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

التفسيــر : ﴿ألهاكـم التَّكاثـر﴾ أي شغلكم أيها الناسُ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله ، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حتـى زُرتـم المقـابـر﴾ أي حتى أدرككم الموت ، ودفنتم في المقابر ، والجملةُ خبرٌ يراد به الوعظ والتوبيخ قال القرطبي : المعنى شغلكم المباهاة بكثرة المال والأولاد عن طاعة الله ، حتى مُتُّم ودفنتم في المقابر[1] ﴿كـلاَّ سـوف تعلمـون﴾ زجرٌ وتهديدٌ أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد ، فسوف تعلمون عاقبة جهلكم وتفريطكم في جنب الله ، وانشغالكم بالفاني عن الباقي ﴿ثـم كـلاَّ سـوف تعلمــون﴾ وعيدٌ إثر وعيد ، زيادة في الزجر والتهديد أي سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعاينتم أهواله وشدائده قال ابن عباس : ﴿كـلاَّ سـوف تعلمـون﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ثـم كـلاَّ سـوف تعلمـون﴾ أي في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب[2] ﴿كـلاَّ لـو تعلمـون علـم اليقيـن﴾ أي ارتدعوا وانزجروا فلو علمتم العلم الحقيقي الذي لا شك فيه ولا امتراء ، وجواب ﴿لـو﴾ محذوفٌ لقصد التهويل أي لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله ، ولما خُدعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها كما قالﷺ : (لـو تعلمون ما أعلـم لضحكتـم قليلاً ولبكيتم كثيراً)[3] الحديث قال في التسهيل : وجوابُ ﴿لـو﴾ محذوفٌ تقديره : لو تعلمون لازدجرتم واستعددتم للآخرة ، وإنما حذف لقصد التهويل ، فيقدر السامع أعظم ما

(١) القرطبي ١٦٨/٢٠ وقال ابن كثير : يقول تعالى : شغلكـم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها ، عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموتُ ، وزرتم المقابر وصرتم من أهلهـا . (٢) القرطبي ١٧٢/٢٠ . (٣) جزء من حديث رواه البخاري .

يخطر بباله[١] كقوله تعالى ﴿ولو ترى إذ وُقفوا على النار﴾ ﴿ لتَرُونَّ الجحيم﴾ أي أُقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عياناً ويقيناً قال الألوسي : هذا جواب قسم مضمر ، أكد به الوعيد ، وشدَّد به التهديد ، وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيماً[٢] أي والله لترون الجحيم ﴿ثم لترونَّها عين اليقين﴾ أي ثم لترونها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية قال في البحر : زاد التوكيد بقوله ﴿عين اليقين﴾ نفياً لتوهم المجاز في الرؤية الأولى[٣] ﴿ثم لتسألنَّ يومئذٍ عن النعيم﴾ أي ثم لتسألنَّ في الآخرة عن نعيم الدنيا من الأمن والصحة ، وسائر ما يُتلذذ به من مطعم ، ومشرب ، ومركب ، ومفرش .

البَلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الوعظ والتوبيخ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فقد خرج الخبر عن حقيقته إلى التذكير والتوبيخ .

٢ ـ التكرار للتهديد والإنذار ﴿كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون﴾ وعطفه بـ ﴿ثم﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول ، كما يقول العظيم لعبده : أقول لك ثم أقول لك لا تفعل ، ولكونه أبلغ نُزّل منزلة المغايرة فعطف بثم .

٣ ـ حذف جواب ﴿لو﴾ للتهويل ﴿لو تعلمون علم اليقين﴾ أي لرأيتم ما تشيب له الرءوس ، وتفزع له النفوس من الشدائد والأهوال .

٤ ـ الإطناب بتكرار الفعل ﴿لترونَّ﴾ ﴿ثم لترونها﴾ لبيان شدة الهول .

٥ ـ الكناية ﴿حتى زرتم المقابر﴾ كنَّى عن الموت بزيارة القبور والمراد حتى مُتُّم .

٦ ـ المطابقة بين ﴿النعيم . . والجحيم﴾ .

٧ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية .

تـنبيـه : روى الترمذي عن عبد الله بن الشخِّير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فقال: «يقول ابن آدم مالي ، مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأمضيت » ؟

لطيفـة : روى مسلم عن أبي هريرة قال: (خرج رسولُ الله ﷺ ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال ﷺ : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوعُ يا رسول الله ، قال : وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما ! فقوموا فقاموا معه ، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً ، فقال لها رسول الله ﷺ : أين فلان ! قالت : ذهب يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله وصاحبيه ثم قال : الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرم

(١) التسهيل ٤/ ٢١٦ . (٢) الألوسي ٣٠/ ٢٢٥ . (٣) البحر المحيط ٨/ ٥٠٨ .

أضيافاً مني ، فانطلق فجاءهم بعذق - عنقود - فيه بسر وتمر ورطب فقال : كلوا ، وأخذ المدية - السكين - فقال له رسول الله ﷺ : إياك والحلوب ! فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذْق وشربوا ، فلما شبعوا ورَووْا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر : والذي نفسي بيده لتسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة العصر مكية ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان ، لتوضيح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته ، ونجاحه في هذه الحياة أو خسرانه ودماره .

* أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان ، وما فيه من أصناف العجائب ، والعِبَر الدالة على قدرة الله وحكمته ، على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان ، إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي ﴿الإيمان﴾ و﴿العمل الصالح﴾ و﴿التواصي بالحق﴾ و﴿الاعتصام بالصبر﴾ وهي أسس الفضيلة ، وأساس الدين ، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله : لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿والعصر . إنَّ الإنسان لفي خُسر﴾ أي أُقسمُ بالدهر والزمان لما فيه من أصناف

الغرائب والعجائب ، والعبر والعظات ، على أن الإنسان في خسران ، لأنه يفضِّل العاجلة على الآجلة ، وتغلب عليه الأهواء والشهوات قال ابن عباس : العصر هو الدهر أقسم تعالى به لاشتماله على أصناف العجائب وقال قتادة : العصرُ هو آخر ساعات النهار ، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة الباهرة ، والعظة البالغة[1] . . وإنما أقسم تعالى بالزمان لأنه رأس عمر الإنسان ، فكل لحظةٍ تمضي فإنها من عمرك ونقص من أجلك ، كما قال القائل :

إنـا لنفـرحُ بالأيـام نقطعـها وكلٌ يومٍ مضـى نقصٌ من الأجل

قال القرطبي : أقسم الله عز وجل بالعصر ـ وهو الدهر ـ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها ، وما فيها من الدلالة على الصانع ، وقيل : هو قسمٌ بصلاة العصر لأنها أفضل الصلوات[2] ﴿إلا الذيـن آمنـوا وعملـوا الصالحـات﴾ أي جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ، فهؤلاء هم الفائزون لأنهم باعوا الخسيس بالنفيس ، واستبدلوا الباقيات الصالحات عوضاً عن الشهوات العاجلات ﴿وتواصـوْا بالحـق﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بالحق ، وهو الخير كله، من الإيمان ، والتصديق ، وعبادة الرحمن ﴿وتواصـوا بالصبـر﴾ أي وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب ، وعلى فعل الطاعات ، وترك المحرمات . . حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، فإن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا كمَّل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، وكمَّل غيره بالنصح والإرشاد ، فيكون قد جمع بين حق الله ، وحق العباد ، وهذا هو السرُّ في تخصيص هذه الأمور الأربعة .

البـــلاغَـــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ إطلاق البعض وإرادة الكل ﴿إن الإنسان﴾ أي الناس بدليل الاستثناء .

٢ ـ التنكير للتعظيم ﴿لفـي خسـر﴾ أي في خسرٍ عظيم ودمار شديد .

٣ ـ الإطناب بتكرار الفعل ﴿وتواصوا بالحق وتواصوْا بالصبر﴾ لإبراز كمال العناية به .

٤ ـ ذكر الخاص بعد العام ﴿وتواصوا بالصبر﴾ بعد قوله ﴿بالحق﴾ فإن الصبـر داخـل في عمـوم الحق ، إلا أنه أفرده بالذكر إشادة بفضيلة الصبر .

٥ ـ السجع غير المتكلف مثل ﴿العصر ، الصبر ، خسر﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تـــنْبيـــه : أخرج البيهقي في الشعـب عن « أبـي حذيفـة » ـ وكانـت له صحبـة ـ قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لـم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سـورة ﴿والعصر﴾ ثم يسلم أحدهما على الآخر .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر »

(١) البحر ٨/ ٥٠٩ . (٢) القرطبي ٢٠/ ١٧٩



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الهُمَزة مكية ، وقد تحدثت عن الذين يعيبون الناس ، ويأكلون أعراضهم ، بالطعن والانتقاص والازدراء ، وبالسخرية والاستهزاء فعل السفهاء .

* كما ذمت الذين يشتغلون بجمع الأموال ، وتكديس الثروات ، كأنهم مخلدون في هذه الحياة ، يظنون ـ لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم ـ أن المال سيخلدهم في الدنيا .

* وختمت بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء ، حيث يدخلون ناراً لا تخمد أبداً ، تحطم المجرمين ومن يلقى فيها من البشر ، لأنها الحطمة نار سقر ! !

* * *

اللغــة : ﴿هُـمزة﴾ الهمّاز : الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم ، وبناء « فُعلة » يدل على الاعتياد فلا يقال : لُعنة وضُحكة إلا للمكثر المعتاد ﴿لُمزة﴾ اللماز : الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجب والعين ﴿الحطمة﴾ نار جهنم سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلقى فيها وتحطمه وتهشمه ﴿مؤصدة﴾ مطبقة مغلقة من أوصد الباب إذا أغلقه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

التفسير : ﴿ويـلٌ لكـل هُمـزة لمـزة﴾ أي عذاب شديد وهلاك ودمار ، لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن في أعراضهم ، أو يلمزهم سراً بعينه أو حاجبه قال المفسرون : نزلت السورة في

« الأخنس بن شريق » لأنه كان كثير الوقيعة في الناس ، يلمزهم ويعيبهم مقبلين ومدبرين ، والحكم عامٌ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[1] ، ﴿الـذي جمـع مالاً وعـــدَّده﴾ أي الذي جمع مالاً كثيراً وأحصاه ، وحافظ على عدده لئلا ينقص فمنعه من الخيرات قال الطبري : أي أحصى عدده ولم ينفقه في سبيل الله ولم يؤ د حقَّ الله فيه ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه[2] ﴿يحْسَــب أنَّ مالــه أخلــده﴾ أي يظن هذا الجاهل لفرط غفلته أن ماله سيتركه مخلداً في الدنيا لا يموت ﴿كــلاَّ ليُنبـذنَّ في الحُطمـــة﴾ أي ليرتدع عن هذا الظنّ فواللهِ ليطرحنَّ في النار التي تحطم كل ما يُلقى فيها وتلتهمه ﴿ومـا أدراك مــا الحُطمـة﴾ تفخيمٌ وتهويلٌ لشأنها أي وما الذي أعلمك ما حقيقة هذه النار العظيمة ؟ إنها الحطمة التي تحطم العظام وتأكل اللحوم ، حتى تهجم على القلوب ، ثم فسرها بقوله ﴿نــار اللـهِ الموقـدة﴾ أي هي نار الله المسعَّرة بأمره تعالى وإرادته ، ليست كسائر النيران فإنها لا تخمد أبداً ، وفي الحديث (أُوقـد على النـار ألفُ سنـة حتى احمرت ، ثم أُوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت ، ثم أُوقد عليها ألفُ سنة حتى اسودَّت ، فهي سوداء مظلمة) [3] ﴿التـي تطَّلـع على الأفئـدة﴾ أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها قال القرطبي : وخصَّ الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه ، فإنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى ﴿لا يمـوت فيها ولا يحيـا﴾ فهم إذاً أحياء في معنى الأموات[4] ﴿إنهـا عليهـم مُؤصـــدة﴾ أي إن جهنم مطبقة مغلقةٌ عليهم ، لا يدخل إليهم روح ولا ريحان ﴿فـي عَمَـدٍ مُمـدَّدة﴾ أي وهم موثوقون في سلاسل وأغلال ، تشدُّ بها أيديهم وأرجلهم ، بعد إطباق أبواب جهنم عليهم ، فقد يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم ، وتمدد العمد إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية . .

البَــلاَغَــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ صيغة المبالغة ﴿همزة ، ولمزة﴾ لأن بناء « فُعلة » يدل على أنها عادة مستمرة .

٢ ـ التنكير للتفخيم ﴿جمع مالاً﴾ أي مالاً كثيراً لا يكاد يحصى .

٣ ـ التفخيم والتهويل ﴿ومـا أدراك ما الحُطمـة﴾ ؟ تهويلاً لشأن جهنم .

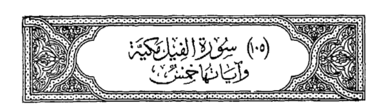
٤ ـ الجناس غير التام بين ﴿همـزة﴾ و﴿لُمـزة﴾ ويسمى الجناس الناقص .

٥ ـ توافق الفواصل مثل ﴿عـدَّده ، أخلده ، الموقدة ، ممدَّدة﴾ ويسمى بالسجع .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة »

***

(١) انظر القرطبي ٢٠/١٨٣ . والرازي ٣١/ ٩١ . (٢) تفسير الطبري ٣٠/ ١٨٩ .
(٣) رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً ، قال والأصح أنه موقوف . (٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٥ .



بين يدي السورة

* سورة الفيل مكية ، وهي تتحدث عن قصة « أصحاب الفيل » حين قصدوا هدم الكعبة المشرفة ، فردَّ الله كيدهم في نحورهم ، وحمى بيته من تسلطهم وطغيانهم ، وأرسل على جيش « أبرهة الاشرم » وجنوده أضعف مخلوقاته ، وهي الطير التي تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة ، ولكنها أشدُّ فتكاً وتدميراً من الرصاصات القاتلة ، حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم ، وكان ذلك الحدث التاريخي الهام ، في عام ميلاد سيد الكائنات محمد بن عبدالله ، سنة سبعين وخمسمائة ميلادية ، وكان من أعظم الإرهاصات الدالة على صدق نبوته ﷺ .

***

اللغــة : ﴿أبابيل﴾ جماعات جماعات بعضها في إثر بعض قال الجوهري : وهو من الجمع الذي لا واحد له يقال : جاءت إبلك أبابيل أي فرقاً وجماعات قال الشاعر :

كادتْ تهدُّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل[1]

﴿سجّيل﴾ طين متحجر ﴿عصف﴾ ورق الزرع بعد الحصاد كالتبن وقشر الحنطة ، سمي عصفاً لأن الريح تعصف به فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

التفسير : ﴿ألـمْ تـر كيـف فعـل ربُّـك بأصحاب الفيـل﴾ أي ألم يبلغك يا محمد وتعلم علماً يقينياً كأنه مشاهد بالعين ، ماذا صنع الله العظيم الكبير بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت

(١) البحر المحيط ٨/ ٥١١ .

الحرام ؟ قال المفسرون : روي أن « أبرهة الأشرم » ملك اليمن ، بنى كنيسةً بصنعاء وأراد أن يصرف إليها الحجيج ، فجاء رجلٌ من كنانة وتغوَّط فيها ليلاً ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقاراً لها ، فغضب « أبرهة » وحلف أن يهدم الكعبة ، وجاء مكة بجيش كبير على أفيال ، يتقدمهم فيل هو أعظم الفيلة ، فلما وصل قريباً من مكة فرَّ أهلها الى الجبال ، خوفاً من جنده وجبروته ، وأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيوراً سوداً ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره وحجران في رجليه ، فرمتهم الطيور بالحجارة، فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة ، حتى أهلكهم الله ودمَّرهم عن آخرهم ، وكانت قصتهم عبرةللمعتبرين[1] قال أبو السعود : وتعليقُ الرؤية بكيفية فعله جل وعلا ﴿كيف فعل﴾ لا بنفسه بأن يقال : « ألم تر ما فعل ربك » الخ لتهويل الحادثة ، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة ، وهيئةٍ عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى ، وكمالِ علمه وحكمته وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي عليه الصلاة والسلام[2] ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾ أي ألم يهلكهم ويجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياعٍ وخسار ؟ ! ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ أي وسلَّط عليهم من جنوده طيراً أتتهم جماعات ، متتابعة بعضها في إثر بعض ، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿ترميهم بحجارة من سجّيل﴾ أي تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر ، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحدٍ إلا قتلته ﴿فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾ أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح ، وأكلته الدواب ثم راثته ، فأهلكهم عن بَكْرة أبيهم ، وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة ، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم ، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه ، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه قال في البحر : كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد عليه السلام ، إرهاصاً بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول ، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام ، وقد أهلكهم الله تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[3] .

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام للتقرير والتعجيب ﴿ألم تر كيف فعل ربك . .﴾ الآية .

٢ ـ الخطاب للنبي ﷺ بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿فعل ربك﴾ تشريف للنبي العظيم ، وإشادةٌ بقدرة الله تعالى .

٣ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه .

٤ ـ توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿الفيل ، تضليل ، سجيل ، أبابيل﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل »

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣١/ ٩٦ والقرطبي ٢٠/ ١٨٧ . (٢) أبو السعود ٥/ ٢٨٥ . (٣) البحر المحيط ٨/ ٥١٢ .



بين يدي السورة

* تحدثت هذه السورة عن نعم الله الجليلة على أهل مكة ، حيث كانت لهم رحلتان : رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام من أجل التجارة ، وقد أكرم الله تعالى قريشاً بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما : نعمةُ الأمن والاستقرار ، ونعمة الغنى واليسار ﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع * وآمنهم من خوف﴾ .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

التفسير : ﴿لإيلاف قريش إيلافهم﴾ هذه اللام متعلقة بالفعل الذي بعدها ﴿فليعبدوا﴾ ومعنى ﴿الإيلاف﴾ الإلفُ والاعتياد يقال : ألف الرجل الأمر إلفاً وإلافاً ؛ وآلفه غيره إيلافاً والمعنى : من أجل تسهيل الله على قريش وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام كما قال تعالى ﴿رحلةَ الشتاء والصيف﴾ أي في رحلتي الشتاء والصيف ، حيث كانوا يسافرون للتجارة ، ويأتون بالأطعمة والثياب ، ويربحون في الذهاب والإياب ، وهم آمنون مطمئنون لا يتعرض لهم أحد بسوء ، لأن الناس كانوا يقولون : هؤلاء جيرانُ بيت الله وسُكان حرمه ، وهم أهل الله لأنهم ولاة الكعبة ، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم ، ولما أهلك الله أصحاب الفيل ، وردَّ كيدهم في نحورهم ، ازداد وقع أهل مكة في القلوب ، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم ، فازدادت تلك المنافع والمتاجر ، فلذلك جاء الامتنان على قريش ، وتذكيرهم بنعم الله ليوحدوه ويشكروه ﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيت﴾ أي فليعبدوا الله العظيم الجليل ، ربَّ هذا البيت العتيق ، وليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة الجليلة

التي خصَّهم بها قال المفسرون : وإنما دخلت الفاء ﴿فليعبــدوا﴾ لما في الكلام من معنى الشرط كأنه قال : إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبـدوه من أجل إيلافهم الرحلتين ، التي هي من أظهر نعمه عليهم ، لأنهم في بلادٍ لا زرع فيها ولا ضرع ، ولهذا قال بعده ﴿الـذي أطعمهـم مـنْ جـوع وآمنهـم مـن خوف﴾ أي هذا الإله الذي أطعمهم بعد شدة جوع ، وآمنهم بعد شدة خوف ، فقد كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ، ولا يُغير عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم كما قال تعالى ﴿أولـم يـروا أنا جعلنا حرماً آمنـاً ويُتخطف النـاسُ من حولهم﴾ وذلك ببركة دعوة أبيهم الخليل إبراهيم عليه السلام حيث قال ﴿ربِّ اجعـل هذا بلـداً آمنـاً﴾ وقوله ﴿وارزقهـم مـن الثمـرات﴾ أفلا يجب على قريش أن يفردوا بالعبادة هذا الإله الجليل ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ؟ !

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿الشتـاء . . والصيف﴾ وبين الجوع والإطعام ﴿أطعمهم من جوع﴾ وبين الأمن والخوف ﴿وآمنهـم مـن خوف﴾ .

٢ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿ربَّ هذا البيـت﴾ .

٣ - تقديم ما حقه التأخير ﴿لإيلاف قريش﴾ والأصل ﴿ليعبدوا ربَّ هذا البيت ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ فقدَّم الإيلاف تذكيراً بالنعمة .

٤ - التنكير في لفظة ﴿جـوع﴾ ولفظة ﴿خـوف﴾ لبيان شدتهما أي جوع شديد ، وخوفٍ عظيم .

تَـنْبِيـه : قال الإمام الفخر : إعلم أنَّ الإنعام على قسمين : أحدهما دفع ضر وهو ما ذكره في سورة الفيل ، والثاني : جلب النفع وهو ما ذكره في هذه السورة ، ولما دفع الله عنهم الضر ، وجلب لهم النفع ، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشكر ﴿فليعبـدوا ربَّ هـذا البيت . .﴾ الآيات .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش »

* * *



بين يدي السورة

* هذه السورة مكية ، وقد تحدثت بإيجاز عن فريقين من البشر هما :

أ ـ الكافر الجاحد لنعم الله ، المكذب بيوم الحساب والجزاء .

ب ـ المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله ، بل يرائي في أعماله وصلاته .

* **أما الفريق الأول** : فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة ، أنهم يهينون اليتيم ويزجرونه غلظةً لا تأديباً ، ولا يفعلون الخير ، حتى ولو بالتذكير بحق المسكين والفقير ، فلا هم أحسنوا في عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه .

* **وأما الفريق الثاني** : فهم المنافقون ، الغافلون عن صلاتهم ، الذين لا يؤدونها في أوقاتها ، والذين يقومون بها « صورة » لا « معنى » المراءون بأعمالهم ، وقد توعدت الفريقين بالويل والهلاك ، وشنعت عليهم أعظم تشنيع ، بأسلوب الاستغراب والتعجيب من ذلك الصنيع ! !

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

اللغة : ﴿يدُعُّ﴾ يدفع بعنفٍ وشدة يقال : دعَّه دعّاً أي دفعه دفعاً ومنه ﴿يوم يُدعُّون إلى نار جهنم دعاً﴾ ﴿يحض﴾ الحضُّ : الحثُّ والترغيب ﴿ساهون﴾ جمع ساهي يقال : سها عن كذا يسهو سهواً

إذا تركه عن غفلة ﴿الماعون﴾ الشيء القليل من المعن وهو القلة تقول العرب : « ماله معنة ولا سعنة » أي ماله قليل ولا كثير من المال ، قال المبرّد والزجاج : الماعون كل ما فيه منفعة كالفأس والقدر والدلو وغير ذلك .

التفسير : ﴿أرأيت الذي يُكذِّب بالدين﴾ ؟ استفهام للتعجيب والتشويق أي هل عرفت الذي يكذب بالجزاء والحساب في الآخرة ؟ هل عرفت من هو، وما هي أوصافه؟ إن أردت تعرفه ﴿فذلك الذي يدُعُّ اليتيم﴾ أي فذلك هو الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة ، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه ﴿ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾ أي ولا يحث على إطعام المسكين قال أبو حيان : وفي قوله ﴿ولا يحضُّ﴾ إشارة إلى أنه هو لا يُطعم إذا قدر ، وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يحضَّ غيره بخلاً ، فلأن يترك هو ذلك فعلاً أولى وأحرى[1] وقال الرازي : فإن قيل : لِم قال ﴿ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾ ولم يقل : ولا يُطعم المسكين ؟ فالجواب أنه إذا منَع اليتيم حقه ، فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ؟ بل هو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية في الخسة ، ويدل على نهاية بخله ، وقساوة قلبه ، وخساسة طبعه[2] ، والحاصل أنه لا يُطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه ، لأنه يكذِّب بالقيامة ، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك ﴿فويل للمصلين﴾ أي هلاكٌ وعذابٌ للمصلين المنافقين ، المتصفين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ أي الذين هم غافلون عن صلاتهم ، يؤخرونها عن أوقاتها تهاوناً بها قال ابن عباس : هو المصلي الذي إن صلى لم يرج لها ثواباً ، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً[3] وقال أبو العالية : لا يصلونها لمواقيتها ، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها[4] ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الآية فقال : (هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها)[5] قال المفسرون : لمَّا قال تعالى ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ بلفظة ﴿عن﴾ عُلم أنها في المنافقين ، ولهذا قال بعض السلف : الحمد لله الذي قال ﴿عن صلاتهم﴾ ولم يقل « في صلاتهم » لأنه لو قال « في صلاتهم » لكانت في المؤمنين ، والمؤمنُ قد يسهو في صلاته ، والفرق بين السهوين واضح ، فإن سهو المنافق سهو تركٍ وقلة التفات إليها ، فهو لا يتذكرها ويكون مشغولاً عنها ، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال وجبره بسجود السهو ، فظهر الفارق بين السهوين ، ثم زاد في بيان أوصافهم الذميمة فقال ﴿الذين هم يراءون﴾ أي يصلون أمام الناس رياءً ليقال إنهم صلحاء ، ويتخشعون ليقال إنهم أتقياء ، ويتصدقون ليقال إنهم كرماء ، وهكذا سائر أعمالهم للشهرة والرياء ﴿ويمنعونَ الماعون﴾ أي ويمنعون الناس المنافع اليسيرة ، من كل ما يستعان به كالإبرة ، والفأس ، والقدر ، والملح ، والماء وغيرها قال مجاهد : الماعون العارية للأمتعة وما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية وقال الطبري : أي يمنعون الناس منافع ما عندهم ، وأصل الماعون من كل شيء منفعته[6] . . وفي الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة ، فإن البخل بها نهاية البخل وهو مخل بالمروءة .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥١٧ . (٢) التفسير الكبير ٣١/ ١٦٢ .

(٣) القرطبي ٢٠/ ٢١١ . (٤) نفس المرجع السابق . (٥) أخرجه ابن جرير (٦) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٠٣ .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام الـذي يراد به تشـويق السامـع إلى الخبـر والتعجيب منـه ﴿أرأيت الـذي يكذب بالدين﴾ ؟

٢ ـ الإيجاز بالحذف ﴿فذلك الذي يدعُّ اليتيم﴾ حذف منه الشرط أي إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُّ اليتيم ، وهذا من أساليب البلاغة .

٣ ـ الذم والتوبيخ ﴿فويلٌ للمصلين﴾ ووضع الظاهر مكان الضمير ﴿فويل لهم﴾ زيادة في التقبيح لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة .

٤ ـ الجناس الناقص ﴿ويمنعون الماعون﴾ .

٥ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿ساهون ، يراءون ، الماعون﴾ الخ

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الماعون »

***



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الكوثر مكية ، وقد تحدثت عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم ، بإعطائه الخير الكثير والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة ، ومنها ﴿نهر الكوثـر﴾ وغير ذلك من الخير العظيم العميم ، وقد دعت الرسول إلى إدامة الصلاة ، ونحر الهدي شكراً لله .

* وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخـزي أعدائـه ، ووصفـت مبغضيه بالذلـة والحقـارة ، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة ، بينما ذِكرُ الرسول مرفوعٌ على المنائر والمنابر ، واسمه الشريف على كل لسان ، خالدٌ إلى آخر الدهر والزمان .

اللغَـــة : ﴿الكوثر﴾ الخير الكثير وهو مبالغة من الكثرة ، والعرب تسمـي كل شيء كثـير في العدد ، والقدْر والخطر كوْثراً قال الشاعر :

وأنــت كثـيرٌ يا ابــن مروان طيّبٌ وكانَ أبـوك ابــنُ العقائــل كوثرا[١]

﴿انحر﴾ النحر خاصٌ بالإبل ، وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم ﴿شانئك﴾ الشانـيء : المبغض من الشنآن بمعنى العداوة والبغض ومنه ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم﴾ أي بغضهم ﴿الأبتر﴾ المنقطع عن كل خير ، من البتر وهو القطعُ يقال : بترتُ الشيء بتراً قطعته ، والسيف الباترُ : القاطعُ ، ويقال للذي لا نسل له أبتر ، لأنه انقطع نسبه ، وسميت خطبة زياد بالخطبة البتراء لأنه لم يحمد الله فيها ولم يصلّ على النبي الكريم ﷺ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ الخطاب للرسول ﷺ تكريماً لمقامه الرفيع وتشريفاً أي نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة ، ومن هذا الخير « نهر الكوثر » وهو كما ثبت في الصحيح (نهرٌ في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدُّر والياقوت ، تربتُه أطيبُ من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج ، من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً)[٢] عن أنس قال : (بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا ، إذْ أغفى إغفاءةً ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : أُنزلت عليَّ آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ السورة ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال : فإنه نهرٌ وعدنيه ربي عز وجل ، فيه خيرٌ كثير ، هو حوضٌ ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيتُه عدد النجوم ، فيختلج العبد - أي ينتزع ويقتطع - منهم فأقول : إنه من أمتي ! فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك)[٣] قال أبو حيان : وذكر في الكوثر ستةٌ وعشرونَ قولاً ، والصحيحُ هو ما فسره به رسول الله ﷺ فقال : (هــو نهرٌ في الجنة حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربتُه أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل) وعن ابن عباس : الكوثرُ : الخير الكثير[٤] ﴿فصلِّ لربك وانحر﴾ أي فصلِّ لربك الذي أفاض ما أفاض عليك من الخير خالصاً لوجهه الكريم ، وانحر الإبل التي هي خيار أموال العرب شكراً له على ما أولاك ربك من الخيرات والكرامات قال في التسهيل : كان المشركون يصلون مكاءً وتصدية ، وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه ﷺ : صلِّ لربك وحده ، وانحر لوجهه لا لغيره ، فيكون ذلكُ أمراً بالتوحيد والإخلاص ﴿إنَّ شانئك هو الأبتر﴾ أي إن مبغضك يا محمد هو المنقطع عن كل خير قال المفسرون : لما مات « القاسم » ابن

(١) القرطبي ٢٠/ ٢١٦ . (٢) رواه الترمذي .
(٣) أخرجه مسلم والترمذي . (٤) البحر ٨/ ٥١٩ وما ذهب إليه ابن عباس من أنه الخير الكثير جامع لأقوال المفسرين ، فقد أعطي الرسول ﷺ الفضائل الكثيرة العميمة ، أعطي النبوة ، والكتاب ، والحكمة ، والعلم ، والشفاعة ، والحوض المورود ، والمقام المحمود ، وكثرة الأتباع ، والنصر على الأعداء ، وكثرة الفتوحات إلى غير ما هنالك من الخيرات صلوات الله وسلامه عليه .

النبي ﷺ قال العاص بن وائل : دعوه فإنه رجلٌ أبتر لا عقب له ـ أي لا نسل له ـ فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى هذه السورة ، وأخبر تعالى أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد ، لأنه مبتور من رحمة الله ـ أي مقطوع عنها ـ ولأنه لا يُذكر إلا ذكر باللعنة ، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر ، مرفوع على المآذن والمنابر ، مقرون بذكر الله تعالى ، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهوكالوالد لهم صلوات الله وسلامه عليه .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ صيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿إنا أعطيناك﴾ ولم يقل : أنا أعطيتك .

٢ ـ تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ﴿إنَّـا﴾ لأن أصلها إنَّ ونحن .

٣ ـ صيغة الماضي المفيدة للوقوع ﴿أعطيناك﴾ ولم يقل : سنعطيك لأن الوعد لما كان محققاً عبَّر عنه بالماضي مبالغة كأنه حدث ووقع .

٤ ـ المبالغة في لفظه الكوثر .

٥ ـ الإضافة للتكريم والتشريف ﴿فصلِّ لربـك﴾ .

٦ ـ إفادة الحصر ﴿إنَّ شانئك هو الأبتر﴾ .

٧ ـ المطابقة بين أول السورة وآخرها بين ﴿الكوثـر والأبتر﴾ فالكوثر الخير الكثير ، والأبتر المنقطع عن كل خير ، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان منزل القرآن ! !

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الكافرون مكية ، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال ، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة ، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فنزلت السورة تقطع أطماع الكافرين ، وتفصل النزاع بين الفريقين : أهل الإيمان ، وعبدة الأوثان ، وترد على الكافرين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

التفسير : ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار ﴿لا أعبدُ ما تعبدون﴾ أي لا أعبد هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها ، فأنا بريءٌ من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئاً قال المفسرون : إن قريشاً طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فقال ، معاذ الله أن نشرك بالله شيئاً فقالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلهك ، فنزلت السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقام على رءوسهم فقرأها عليهم فأيسوا منه[١] وآذوه وآذوا أصحابه وفي قوله ﴿قل﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله ، وخطابه ﷺ لهم بلفظ ﴿يا أيها الكافرون﴾ ونسبتهم إلى الكفر ـ وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى ذلك ـ دليلٌ على أنه محروسٌ من عند الله ، فهو لا يبالي بهم ولا بطواغيتهم ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي ولا أنتم يا معشر المشركين عابدون إلهي الحق الذي أعبده وهو الله وحده ، فأنا أعبد الإله الحقَّ وهو الله ربُّ العالمين ، وأنتم تعبدون الأحجار والأوثان ، وشتان بين

(١) انظر روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٢٥٠ ، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٢٢٥ .

عبادة الرحمن ، وعبادة الهوى والأوثان ! ! ﴿ولا أنـا عابـدٌ ما عبدتـم﴾ تأكيدٌ لما سبق من البراءة من عبادة الأحجار ، وقطعٌ لأطماع الكفار كأنه قال : لا أعبد هذه الأوثان في الحال ولا في الاستقبال ، فأنا لا أعبد ما تعبدونه أبداً ما عشتُ ، لا أعبد أصنامكم الآن ، ولا فيما يستقبل من الزمـان ﴿ولا أنتـم عابـدون ما أعبـد﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعابدين إلهي الحق الذي أعبده ﴿لكـم دينكـم وليَ ديـن﴾ أي لكم شرككم ، ولي توحيدي ، وهذا غاية في التبرؤ من عبادة الكفار ، والتأكيد على عبادة الواحد القهار ، قال المفسرون : معنى الجملتين الأولتين : الاختلاف التام في المعبود ، فإله المشركين الأوثان ، وإلـه محمـد الرحمن ، ومعنى الجملتين الآخرتين : الاختلاف التام في العبادة ، كأنـه قال : لا معبودنـا واحـد ، ولا عبادتنا واحدة .

البـلاغـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الخطاب بالوصف ﴿يا أيها الكافـرون﴾ للتوبيخ والتشنيع على أهل مكة .

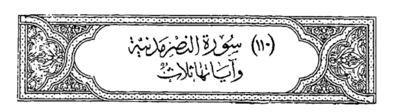
٢ ـ طباق السلب ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ فالأول نفيٌ والثاني إثبات .

٣ ـ المقابلة بين كلٍ من الجملتين الأوليين ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي في الحال ، والمقابلة بين الجملتين الأخريين ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي في الاستقبال ، وفي هذه المقابلة نفيٌ لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال وهو من المحسنات البديعية .

٤ ـ توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون﴾ .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون »

* * *



(١١٠) سورة النصر مدنية
وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة النصر مدنية ، وهي تتحدث عن « فتح مكة » الذي عزَّ به المسلمون ، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية ، وتقلمت أظافر الشرك والضلال ، وبهذا الفتح المبين دخل الناس في دين الله ، وارتفعت راية الإسلام ، واضمحلت ملة الأصنام ، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه ، من أظهر الدلائل على صدق نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

التفسير : ﴿إذا جاء نصرُ اللهِ والفتح﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، يذكّره ربه بالنعمة والفضل عليه وعلى سائر المؤمنين ، والمعنى : إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك ، وفتح عليك مكة أم القرى قال المفسرون : الإخبارُ بفتح مكة قبل وقوعه إخبارٌ بالغيب ، فهو من أعلام النبوَّة ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين اللهِ أفواجاً﴾ أي ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعاتٍ جماعات من غير حربٍ ولا قتال ، وذلك بعد فتح مكة صارت العرب تأتي من أقطار الأرض طائعة قال ابن كثير : إنَّ أحياء العرب كانت تنتظر فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبيٌّ ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهرٌ للإسلام[1] ﴿فسبح بحمد ربك﴾ أي فسبِّح ربك وعظمه ملتبساً بحمده على هذه النعم ، واشكره على ما أولاك من النصر على الأعداء ، وفتح البلاد ، وإسلام العباد ﴿واستغفره﴾ أي اطلب منه المغفرة لك ولأمتك ﴿إنه كان تواباً﴾ أي إنه جلّ وعلا كثير التوبة ، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٨٧ . وقال القرطبي و « اذا » بمعنى قد أي قد جاء نصر الله لأن نزولها بعد الفتح .

البـلاغـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ ذكر الخاص بعد العام ﴿نصر الله والفتح﴾ نصر الله يشمل جميع الفتوحات فعطف عليه ﴿فتح مكة﴾ تعظيماً لشأن هذا الفتح واعتناءً بأمره .

٢ ـ إطلاق العموم وإرادة الخصوص ﴿ورأيت الناس﴾ لفظ الناس عام والمراد به العرب .

٣ ـ دين الله هو الإسلام ﴿يدخلون في دين الله﴾ وأضافه اليه تشريفاً وتعظيماً ، كبيت الله وناقة الله .

٤ ـ صيغة المبالغة ﴿إنه كان تواباً﴾ لأن صيغة « فعال » للمبالغة .

تـنبيـه : هذه السورة الكريمة فيها نعيُ النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة ﴿التوديع﴾ وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة : ما أراه إلا حضور أجلي ، وقال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ، ثم نزلت ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً[1] . وروى الإمام البخاري عن ابن عباس قال : « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال : إنه من علمتم ! ! فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم ـ قال فما رأيت أنه دعاني إلا ليريهم ـ فقال عمر : ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾؟ فقال بعضهم : أُمرنا بأن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذا تقول يا ابن عباس ؟ قلت : لا قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه فقال ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ فقال عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تقول »[2] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر »

* * *

(١) القرطبي ٢٠/ ٢٣٣ . (٢) جمع الفوائد وأعذب الموارد ٢/ ٢٨٥ .



(١١١) سورة المسد مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة المسد مكية ، وتسمى سورة اللهب ، وسورة تبَّتْ ، وقد تحدثت عن هلاك « أبي لهب » عدّو الله ورسوله ، الذي كان شديد العداء لرسول الله ﷺ ، يترك شغله ويتبع الرسول ﷺ ليفسد عليه دعوته ، ويصدَّ الناس عن الإيمان به ، وقد توعدته السورة في الآخرة بنارٍ موقدة يصلاها ويشوى بها ، وقرنت زوجته به في ذلك ، واختصتها بلون من العذاب شديد ، هو ما يكون حول عنقها من حبلٍ من ليفٍ تجذب به في النار، زيادة في التنكيل والدمار .

اللغــــة : ﴿تبَّــت﴾ هلكت والتبابُ : الهلاك والخسران ومنه قوله تعالى ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ وقال الشاعر : « فتباً للذي صنعوا » ﴿ذات لهب﴾ ذات اشتعال وتلهب ﴿جيدها﴾ عنقهـا قال امرؤ القيس :

« وجيدٍ كجيد الريم ليس بفاحش »[١]

﴿مســد﴾ ليف قال الواحدي : المسد في كلام العرب : الفتل ، يقال مسد الحبل يمسده مسداً إذا أجاد فتله ، وكلُّ شيء فتل من الليف والخَوْص فهو مسد[٢]

سبب النزول : عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا ونادى : يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون من قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو الخبر ، فاجتمعت قريش وجاء عمه « أبو لهب » فقالوا : ما وراءك ؟ فقال ﷺ : أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدِّقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً قط ، قال : ﴿فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد﴾ فقال له أبو لهب : تباً لك يا محمد سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾[٣] .. السورة .

ب ـ وعن طارق المحاربي قال « بينا أنا بسوق ذي المجاز إذْ أنا بشاب حديث السن يقـول أيها الناس : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » وإذا رجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ـ مؤخر القدم ـ ويقول : يا أيها الناس إنه كذابٌ فلا تصدقوه ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا هو محمد يزعم أنه نبي ، وهذا عمه « أبو لهب » يزعم أنه كذاب »[٤] .

---

(١) القرطبي ٢٠/ ٢٤١ . (٢) التفسير الكبير ٣١/ ١٧٣ . (٣) روح المعاني ٣٠/ ٢٦٠ . (٤) القرطبي ٢٠/ ٢٣٦ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

التفسير : ﴿تبَّت يدا أبي لهب﴾ أي هلكت يدا ذلك الشقي ﴿أبي لهب﴾ وخاب وخسر وضلَّ عمله ﴿ وتبَّ ﴾ أي وقد هلك وخسر، الأول دعاءٌ ، والثاني إخبارٌ كما يقال : أهلكه اللهُ وقد هلك قال المفسرون : التباب هو الخسار المفضي إلى الهلاك ، والمراد من اليد صاحبُها ، على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله وجميعه ، وأبو لهب هو « عبد العُزّى بن عبد المطلب » عم النبي ﷺ وامرأته العوراء « أم جميل » أخت أبي سفيان ، وقد كان كلٌ منهما شديد العداوة للرسول ﷺ فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها ، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وفي يدها فهْر ـ قطعة ـ من الحجارة ، فلما دنت من الرسول ﷺ أخذ الله بصرها عنه فلم تر إلاّ أبا بكر ، فقالت يا أبا بكر : بلغني أن صاحبك يهجوني ، فوالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه ، ثم أنشدت تقول :

مُذمَّماً عصينا . وأمره أبينَا . ودينه قليْنا

ثم انصرفت فقال أبو بكر يا رسول الله : أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني ، وكانت قريش يسبون الرسول ﷺ يقولون : مذمماً بدل « محمد » وكان يقول صلوات الله عليه : ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش ؟ يسبون ويهجون مذمماً وأنا محمد[١] ! ؟ قال الخازن : فإن قلت : لم كناه وفي التكنية تشريف وتكرمة ؟ فالجواب من وجوه : أحدها : أنه كان مشتهراً بالكنية دون الاسم ، فلو ذكره باسمه لم يعرف، الثاني : أنه كان اسمه « عبد العزى » فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك ـ لأن العزَّى صنم فلم تضف العبودية إلى صنم ـ الثالث : أنه لما كان من أهل النار ، ومآله إلى النار ، والنارُ ذاتُ لهب ، وافقت حاله كنيته وكان جديراً بأن يذكر بها[٢] ﴿ما أغْنى عنهُ مالهُ وما كسب﴾ أي لم يفده ماله الذي جمعه ، ولا جاهه وعزه الذي اكتسبه قال ابن عباس ﴿وما كسب﴾ من الأولاد ، فإن ولد الرجل من كسبه . . روي أن الرسول ﷺ لما دعا قومه إلى الايمان ، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً ، فإني أفتدي نفسي من العذاب بمالي وولدي فنزلت[٣] قال الألوسي : كان لأبي لهب ثلاثة أبناء « عُتبة » و« معتب » و« عُتيبة » وقد أسلم الأولان يوم الفتح ، وشهدا حنيناً والطائف ، وأما « عُتيبة » فلم يسلم ، وكانت « أم كلثوم » بنت رسول الله ﷺ عنده ، وأختها « رُقية » عند أخيه عُتبة ، فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما : رأسي ورأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد ، فطلقاهما ولما

(١) انظر القرطبي ٢٠/ ٢٣٤ والألوسي ٣٠/ ٢٦٤ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٣١٧ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٩٠ .

أراد « عُتَيبة » بالتصغير الخروج الى الشام مع أبيه قال : لآتينَّ محمداً وأوذينَّه فأتاه فقال يا محمد : إني كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل أمام النبي ﷺ وطلَّق ابنته « أم كلثوم » فغضب ﷺ ودعا عليه فقال : (اللهم سلط عليه كلباً من كلابك) فافترسه الأسد ، وهلك أبو لهب بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ بمرضٍ معدٍ كالطاعون يسمى « العدسة » وبقي ثلاثة أيام حتى أنتن ، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه ، فكان الأمر كما أخبر به القرآن[1] ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ أي سيدخل ناراً حامية ، ذات اشتعال وتوقُّد عظيم ، وهي نار جهنم ﴿وامرأتُه حمَّالة الحطب﴾ أي وستدخل معه نار جهنم ، امرأته العوراء « أم جميل » التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس ، وتوقد بينهم نار العداوة والبغضاء قال أبو السعود : كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ [2] لإيذائه وقال ابن عباس : كانت تمشي بالنميمة بين الناس لتفسد بينهم[3] ﴿في جيدها حبلٌ من مسد﴾ أي في عنقها حبلٌ من ليف قد فتل فتلاً شديداً ،تعذب به يوم القيامة قال مجاهد : هو طوقٌ من حديد وقال ابن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللاتِ والعُزَّى لأنفقنها في عداوة محمد ، فأعقبها اللهمنها حبلاً في جيدها من مسد النار[4] .

البَلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ المجاز المرسل ﴿يدا أبي لهب﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي هلك أبو لهب .

٢ ـ الجناس بين ﴿أبي لهب﴾ وبين ﴿ناراً ذات لهب﴾ فالأول كنية والثاني وصف للنار .

٣ ـ الكنية للتصغير والتحقير ﴿أبي لهب﴾ فليس المراد تكريمه بل تشهيره ، كأبي جهل .

٤ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿حمالة الحطب﴾ مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة قال الشاعر : « ولم يمش بين الحي بالحطب الرطب » .

٥ ـ النصب على الشتم والذم ﴿ وامرأتُه حمَّالة الحطب﴾ أي أخص بالذم حمالة الحطب .

٦ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد »

* * *

(١) روح المعاني ٢٦٢/٣٠. (٢) أبو السعود ٥/ ٢٩١ . (٣) الألوسي ٢٦٣/٣٠. (٤) القرطبي ٢٤٢/٢٠ .



بين يدي السورة

* سورة الإخلاص مكية ، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الواحد الأحد ، الجامع لصفات الكمال ، المقصود على الدوام ، الغني عن كل ما سواه ، المتنزه عن صفات النقص ، وعن المجانسة والمماثلة ، وردت على النصارى القائلين بالتثليث ، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

اللغة : ﴿الصَّمد﴾ السيد المقصود في قضاء الحاجات قال الشاعر :

ألا بكَّر الناعي بخير بني أسد ... بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد[1]

﴿كفواً﴾ الكُفُوءُ : النظير والشبيه قال أبو عبيدة : يقال : كفْوٌ ، وكفء ، وكفاء كلها بمعنى واحد وهو المِثْل والنظير .

سَبَبُ النّزول : روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد صف لنا ربَّك ، أمن ذهبٍ هو ، أم من فضة ، أم من زبرجد ، أم من ياقوت ؟ ! فنزلت ﴿قل هو الله أحد . . الله الصمد . .﴾ السورة .

التفسير : ﴿قل هو اللهُ أحد﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين : إن ربي الذي أعبده ، والذي أدعوكم لعبادته هو واحد أحد لا شريك له ، ولا شبيه له ولا نظير ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، فهو جل وعلا واحد أحد ، ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث « الآب ، والابن ، وروح القدس » ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة قال في التسهيل : واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معانٍ ، كلها صحيحة في حقه تعالى : الأول : أنه واحد لا ثاني معه فهو نفيٌ

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٢٧ . (٢) انظر التفسير الكبير ٣١/ ١٧٥ .

للعدد ، والثاني : أنه واحد لا نظير ولا شريك له ، كما تقول : فلان واحد في عصره أي لا نظير له والثالث : أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض ، والمراد بالسورة نفي الشريك رداً على المشركين ، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى ، وذلك كثير جداً ، وأوضحها أربعة براهين : **الأول** ؛ قوله تعالى ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ ؟ ـ وهذا دليل الخلق والإيجاد ـ فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات ، لم يصح أن يكون واحد منها شريكاً له **والثاني** : قوله تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ ـ وهو دليل الإحكام والإبداع ـ **الثالث** : قوله تعالى ﴿لو كـان معه آلهـة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ ـ وهو دليل القهر والغلبة ـ **الرابع** : قوله تعالى ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلـه ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ ـ وهو دليل التنازع والاستعلاء[1] ثم أكد تعالى وحدانيته واستغناءه عن الخلق فقال ﴿اللَّـهُ الصَّمَـد﴾ أي هو جل وعلا المقصود في الحوائج على الدوام ، يحتاج إليه الخلق وهو مستغنٍ عن العالمين قال الألوسي : الصَّمد السيدُ الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمدُ إليه ـ أي يلجأ إليه ـ الناسُ في حوائجهم وأمورهم[2] ﴿لـم يلـد﴾ أي لم يتخذ ولداً ، وليس له أبناء وبنات ، فكما هو متصف بالكمالات ، منزَّه عن النقائص قال المفسرون : في الآية ردٌّ على كل من جعل لله ولداً ، كاليهود في قولهم ﴿عزيرٌ بن الله﴾ والنصارى[3] في قولهم ﴿المسيح بن الله﴾ وكمشركي العرب في زعمهم أن ﴿الملائكة بنات الله﴾ فردَّ الله تعالى على الجميع في أنه ليس له ولد ، لأن الولد لا بدَّ أن يكون من جنس والده ، والله تعالى أزلي قديم ، ليس كمثله شيء ، فلا يمكن أن يكون له ولد ، ولأن الولد لا يكون إلا لمن له زوجة ، والله تعالى ليس له زوجة وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبة﴾ ؟ ! ﴿ولـم يُولـد﴾ أي ولم يولد من أبٍ ولا أمٍ ، لأن كل مولود حادث ، والله تعالى قديم أزلي ، فلا يصح أن يكون مولوداً ولا أن يكون له والد ، وقد نفت الآية عنه تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات ، فهو الأول الذي لا ابتداء لوجوده ، القديم الذي كان ولم يكن معه شيء غيره ﴿ولـم يكـن لـه كفواً أحـد﴾ أي وليس له جل وعلا مثيلٌ ، ولا نظير ، ولا شبيه أحدٌ من خلقه ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ قال ابن كثير : هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظيرٌ يساميه ، أو قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدَّس وتنزَّه ، وفي الحديث القدسي (يقول الله عز وجل : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولـم يكن له كفـواً أحد) .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٢٣ ، وقد ذكر في التسهيل هذه النصوص الكريمة دون بيان وجه الدلالة ، وما ذكر بين المعترضين مثل : دليل الخلق والإيجاد ، دليل الإحكام والإبداع فهو من كلامنا .

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٢٧٣ . (٣) يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم « الآب ، والابن ، وروح القدس » وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، ويزعمون أنهم موحدون ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيا يلي :

١ ـ ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن ﴿قل هو﴾ للتعظيم والتفخيم .

٢ ـ تعريف الطرفين ﴿الله الصمد﴾ لإفادة التخصيص .

٣ ـ الجناس الناقص ﴿لم يلد﴾ ﴿ولم يولد﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف .

٤ ـ التجريد فإن قوله تعالى ﴿قل هو الله أحد﴾ يقتضي نفي الكفء والولد ، وقوله ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ هو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم وذلك زيادة في الايضاح والبيان .

٥ ـ السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية ﴿قل هو الله أحد، اللهُ الصَّمد﴾ .

لطيفَة : هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز ، وأوضحت صفات الجلال والكمال ، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص ، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية ، ونفت التعدد ﴿قل هو الله أحد﴾ وأثبتت الثانية كماله تعالى ، ونفت النقص والعجز ﴿الله الصَّمد﴾ وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿لم يلد ولم يولد﴾ وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿ولم يكن له كُفواً أحد﴾ فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال ، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص .

فَائِدَة : روي عن النبي ﷺ أنه قال : (من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فكأنما قرأ بثلث القرآن)[1] قال العلماء : وذلك لما تضمنته من المعاني والعلوم والمعارف ، فإن علوم القرآن ثلاثة : « توحيد ، وأحكام ، وقصص » وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد ، فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار ، وقيل : إن ذلك في الثواب أي لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن ، والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص »

***

(١) أخرجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أبي بن كعب مرفوعا



بين يدي السورة

* سورة الفلق مكية ، وفيها تعليم للعباد أن يلجأوا إلى حمى الرحمن ، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته ، ومن شر الليل إذا أظلم ، لما يصيب النفوس فيه من الوحشة ، ولانتشار الأشرار والفجار فيه ، ومن شر كل حاسد وساحر ، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعوِّذ نفسه بهما .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾

اللغة : ﴿الفلق﴾ الفَلَق : الصبح تقول العرب : هو أبين من فلق الصبح ، والفِلْق بالكسر الداهية والأمر العجب ، وأصله من فلقتُ الشيء أي شققته ، فكل ما انفلق من شيء من حيوان ، وحب ، ونوى فهو فلق ، ومنه « فالق الإصباح » قال ذو الرمة : « حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق » أي انجلى الصبح عن وجهه ﴿غاسق﴾ الغاسق : الليل إذا اشتد ظلامه ، والغسق أول ظلمة الليل يقال : غسق الليل أي أظلم قال الشاعر :

إنَّ هذا الليل قد غسقا ... واشتكيتُ الهمَّ والأرقا[1]

﴿وقب﴾ دخل بظلامه ، والوقوب : الدخول ﴿النفّاثات﴾ النفث : شبه النفخ دون تفلٍ بالريق ، فإذا كان معه ريق فهو التفل قال عنترة :

فإنْ يبرأ فلم أنفث عليه ... وإن يُفْقَد فحُقَّ له الفُقود[2]

التفسير : ﴿قُل أعوذُ برب الفلق﴾ أي قل يا محمد ألتجىء وأعتصم برب الصبح الذي

(١) التفسير الكبير ٣٠/١٩٤ . (٢) القرطبي ٢٠/٢٥٧ .

ينفلق عنه الليل ، وينجلي عنه الظلام قال ابن عباس : ﴿الفلق﴾ الصبحُ كقوله تعالى ﴿فالق الإصباح﴾[١] وفي أمثال العرب : هو أبينُ من فلق الصبح قال المفسرون : سبب تخصيص الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة ، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة ، فكما أن الإنسان يكون منتظراً لطلوع الصباح ، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح ﴿من شرِّ ما خلق﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس ، والجن ، والدواب ، والهوام ، ومن شر كل مؤذٍ خلقه الله تعالى ﴿ومن شرِّ غاسق إذا وقب﴾ أي ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولهذا قالوا في المثل « الليلُ أخفى للويل » قال الرازي : وإنما أُمر أن يتعوذ من شر الليل ، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوام من مكانها ، ويهجم السارقُ والمكابر ، ويقع الحريق ، ويقل فيه الغوث[٢] ﴿ومن شرِّ النفاثات في العقد﴾ أي ومن شر السواحر اللواتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن ـ أي ينفخن ـ فيها ليضروا عباد الله بسحرهن ، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله﴾ قال في البحر : وسبب نزول المعوذتين قصة « لبيد بن الأعصم » الذي سحر رسول الله ﷺ في مشطٍ ومشاطة وجف ـ قشر الطلع ـ طلعةٍ ذكر ، ووترٍ معقود فيه إحدى عشرة عقدة ، مغروزٍ بالإبر ، فأنزلت عليه المعوذتان ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد في نفسه خفه ﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نشط من عقال[٣] ﴿ومن شر حاسدٍ إذا حسد﴾ أي ومن شر الحاسد الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره ، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الجناس الناقص بين ﴿فلق﴾ و﴿خلق﴾ .

٢ ـ الإطناب بتكرار الاسم ﴿شر﴾ مراتٍ في السورة ﴿من شر ما خلق﴾﴿ومن شر غاسق﴾﴿ومن شر النفاثات﴾ الخ تنبيهاً على شناعة هذه الأوصاف .

٣ ـ ذكر الخاص بعد العام للاعتناء بالذكور ﴿من شر ما خلق﴾ فإنه عموم يدخل تحته شر الغاسق ، وشر النفاثات ، وشر الحاسد .

٤ ـ جناس الاشتقاق بين ﴿حاسد﴾ و﴿حسد﴾ .

٥ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق »

* * *

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٩٤ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٣١/ ١٩٥ . (٣) البحر المحيط ٨/ ٥٣٠ .



بين يدي السورة

* سورة الناس مكية ، وهي ثاني المعوذتين ، وفيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء ، إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن ، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء .

* وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدىء بالفاتحة ، ليجمع بين حسن البدء ، وحسن الختم ، وذلك غاية الحسن والجمال ، لأن العبد يستعين بالله ويلتجىء إليه ، من بداية الأمر إلى نهايته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

اللغة : ﴿الوسواس﴾ الشيطان الموسوس ، مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي وحديث النفس قال الأعشى :

« تسمعُ لِلحَلْي وسْواساً إذا انصرفت »[1]

﴿الخناس﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويختفي ويتأخر يقال : خنس الظبي إذا اختفى ، وسمي الشيطان خناساً لأنه يتوارى ويختفي إذا ذكر العبد ربه ، فإذا غفل عن ذكر الله عاد فوسوس له والخنوس : التأخر ﴿الجِنَّة﴾ بكسر الجيم الجنُّ جمع جني ، وبضم الجيم الوقاية وفي الحديث (الصوم جُنّة)[2] أي وقاية من عذاب الله .

التفسير : ﴿قل أعوذ﴾ أي قل يا محمد أعتصم وألتجىء وأستجير ﴿بربِّ الناس﴾ أي

(١) القرطبي ٢٠/ ٢٦١ . (٢) جزء من حديث رواه الشيخان .

بخالق الناس ومربيهم ومدبر شئونهم ، الذي أحياهم وأوجدهم من العدم ، وأنعم عليهم بأنواع النعم قال المفسرون : إنما خصَّ الناس بالذكر ـ وإن كان جلت عظمته رب جميع الخلائق ـ تشريفاً وتكريماً لهم ، من حيث إنه تعالى سخَّر لهم ما في الكون ، وأمدهم بالعقل والعلم ، وأسجد لهم ملائكة قدسه ، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق ﴿ مَـلِكِ النـاس﴾ أي مالك جميع الخلق حاكمين ومحكومين ، ملكاً تاماً شاملاً كاملاً ، يحكمهم ، ويضبط أعمالهم ، ويدبّر شئونهم ، فيعز ويذل ، ويغني ويُفقر ﴿إلـه النـاس﴾ أي معبودهم الذي لا ربَّ لهم سواه قال القرطبي : وإنما قال ﴿ملك الناس * إلـه الناس﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه ملكهم ، وفي الناس من يعبد غيره فذكر إنه إلههم ومعبودهم ، وأنه الذي يجب إن يستعاذ به ويُلجأ إليه ، دون الملوك والعظماء[1] ، وترتيب السورة بهذا الشكل في منتهى الإبداع ، وذلك لأن الإنسان أولاً يعرف أن له رباً ، لما يشاهده من أنواع التربية ﴿رب النـاس﴾ ثم إذا تأمل عرف أن هذا الرب متصرفٌ في خلقه ، غني عن خلقه فهو الملك لهم ﴿ملـك الناس﴾ ثم إذا زاد تأمله عرف أنه يستحق أن يُعبد ، لأنه لا عبادة إلا للغني عن كل ما سواه ، المفتقر إليه كل ما عداه ﴿إلـه النـاس﴾ وإنما كـرر لفظ الناس ثلاثاً ولم يكتف بالضمير ، لإظهار شرفهم وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم ، كما حسن التكرار في قول الشاعر :

لا أرى الموتَ يسبـقُ الموتَ شيء نغّص الموتُ ذا الغِنَـى والفقيرا

قال ابن كثير : هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل « الربوبية » و « الملك » و « الإلهية » فهو ربُّ كل شيء ومليكه وإلهه ، وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكة له ، فأمر المستعيذُ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات[2] ﴿مـن شـرِّ الوسـواس﴾ أي من شر الشيطان الذي يلقي حديث السوء في النفس ، ويوسوس للإنسان ليغريه بالعصيان ﴿الخَنَّـاس﴾ الذي يخنس أي يختفي ويتأخر إذا ذكر العبد ربه ، فإذا غفل عن الله عاد فوسوس له وفي الحديث « إن الشيطان واضع خطمه ـ أنفه ـ على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس »[3] ﴿الذي يوسـوسُ فـي صـدور النـاس﴾ أي الذي يلقي لشدة خبثه في قلوب البشر صنوف الوساوس والأوهام قال القرطبي : ووسوسته هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه الى القلب من غير سماع صوت[4] ﴿مـن الجِنَّـة والنـاس﴾ ﴿مـن﴾ بيانية أي هذا الذي يوسوس في صدور الناس ، هو من شياطين الجن والإنس كقوله تعالى ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ فالآية استعاذة من شر الإنس والجن جميعاً ، ولا شك أن شياطين الإنس ، أشدُّ فتكاً وخطراً من شياطين الجن ، فإن شيطـان الجـن يخنس بالاستعـاذة ، وشيطـان الإنس يزين له الفواحش ويغريه بالمنكرات ، ولا يثنيه عن عزمه شيء ، والمعصوم من عصمه الله .

البَـلاغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإضافة للتشريف والتكريم ﴿أعوذ برب الناس﴾ وفي الآيتين بعدها .

(١) القرطبي ٢٠/ ٢٦٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٩٦ . (٣) رواه الحافظ الموصلي . (٤) القرطبي ٢٠/ ٢٦٣

٢ ـ الأطناب بتكرار الاسم ﴿رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس﴾ زيادة في التعظيم لهم ، والاعتناء بشأنهم ، ولو قال ﴿ملكهم ، إلهَهم﴾ لما كان لهم هذا الشأن العظيم .

٣ ـ الطباق بين ﴿الجنة﴾ و﴿الناس﴾ .

٤ ـ جناس الاشتقاق ﴿يوسوس . . والوسواس﴾ ثم ما في السورة من الجرس الموسيقي ، الذي يفضل الألحان بعذوبة البيان ، وذلك من خصائص القرآن .

تـنبيـه : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ والمعوذتين ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاثاً »[1] .

* * *

يقول راجي عفو ربه الجليل ، الشيخ محمد علي الصابوني بن الشيخ جميل : إنه قد تمّ ـ بعون الله وتوفيقه ـ تفسير القرآن العظيم ، في مهبط الوحي ـ مكة المكرمة ـ البلد الأمين ، وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنين ، وكان الفراغ منه في الثامن عشر من شهر جمادى الثانية ١٣٩٨ هـ سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين ، ونسأل الله حسن القبول ، وأن يمنحنا التوفيق والسداد والحمد لله في البدء والختام ، وصلى الله على عبده ورسوله ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وكتبه

محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة

(١) رواه أهل السنن

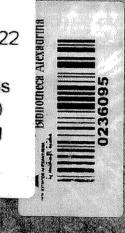
طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجَعلَهُ وَقفًا لِله تعالى



يُوزع مجانًا ولا يُباع